علم تناسب الآي والسور
دراسة نظرية تطبيقية

إعداد

الدكتور / أحمد سلامة أبو الفتوح صالح

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن
بكلية أصول الدين بالمنصورة

بسم ٱلله ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة الإسلام، وجعلنا من أمة خير الأنام، وأصلي وأسلم على من أرسله الله رحمة للعالمين، وهادياً للخلق أجمعين ، فكان خير مبعوث بخير كتاب إلي خير أمة أخرجت للناس. **وبعد:**

فقد اقتضت حكمة الله عز وجل أن يوحى إلي سيد المرسلين وخاتمهم بخير الكتب السماوية، وأن يوحيه إليه منجماً في ثلاث وعشرين سنة تقريباً ، وكانت هذه النجوم مختلفة في قدرها ، فأحياناً كان جبريل عليه السلام ينزل بسورة كاملة، وأحياناً بعدة آيات، وأحياناً بآية واحدة، بل أحياناً كان ينزل ببعض آية، وكل ذلك بأمر الله تعالى وإذنه.

وكان ﷺ بعد أن ينزل عليه جبريل عليه السلام يخبر صحابته ويبلغ كتبة وحيه بما نزل، ويأمرهم بوضعه في موضعه الذي أمره الله عز وجل بوضعه فيه ، ولم يدخر ﷺ جهداً في التبليغ .

(ومع نزول القرآن الكريم منجماً، واستغراق نزوله هذه المدة الزمنية الطويلة، واختلاف الأزمنة التي نزل فيها، وتغاير الأماكن التي نزل بها، وتعدد الأسباب التي نزل عليها، وتنوع ما تتضمنه كل سورة من أحكام ومقاصد، وأهداف وسمات وملامح نرى الترابط بين جمله وآياته وسوره ومعانيه، بل بين آخره وأوله ظاهراً بارزاً، فالقرآن من أوله إلي آخره، ومن ألفه إلي يائه، يظهر فيه التضام والتلاحم والتآلف، فلا نرى بين سوره ولا بين آياته ولا بين جمله وألفاظه انفصالاً أو انفصاماً، ولا نحس بنفرة في المخارج أو في النغم، ولا نبو في المعاني، وإنما نرى التآخي بين الألفاظ ومعانيها، والتآلف بين الكلمات ومبانيها، حتى إن المعاني يدعو بعضها بعضاً، وكل جمله وأجزائه يعانق بعضها بعضاً، ويأخذ بعضها بحجز بعض، كأنه نزل جملة واحدة بنفس الترتيب، أو كأنه كلمة واحدة، أو حلقة ذهبية لا يدري أين طرفاها، فهو رائع الألفاظ، عجيب المعاني، بديع التأليف، محكم النسج والسرد، أعلاه مثمر، وأسفله مغدق، وإنه يعلو ولا يعلى، كل كلمة فيه جاءت على قدر المعنى الذي صيغت له، ولو رفعتها من مكانها أو قدمتها أو أخرتها لاختل المعنى، واعتل المراد منها، وانتثر عقده المنظوم، ولو بذلت جهدك وأفرغت وسعك في أن تأتي بكلمة أخرى مكانها لتسد مسدها وتحل محلها وتؤدي

ما تؤديه لذهب جهدك هباءً، وما استطعت إلي ذلك سبيلا، هذا في الكلمة الواحدة فما بالك بالجملة؟ بل ما بالك بالآية؟[1] ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١)، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ. لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤١، ٤٢). ولذا حرم العلماء قراءة القرآن منكوساً، ولم يجوزوا قراءته بالمعنى، بل أوجبوا على القارئ له أن يلتزم بترتيبه الذي أنزله الله عليه، فلا يليق به أن يتحول من سورة إلي سورة أخرى حتى يفرغ منها، ولا يصح أن ينتقي آيات متفرقات من سورة واحدة أو من عدة سور ، لأن ذلك يخل بوجه التناسب بين الآيات.

كيف لا، وترتيب الآيات في سورها على الوجه الموجود في المصاحف اليوم حصل بتوقيف من النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام عن الله تعالى، ولا مجال للاجتهاد فيه، وعلى ذلك انعقد إجماع الأمة، بل وانعقد إجماع جمهورها على أن ترتيب سور القرآن الكريم هو أيضاً بتوقيف من الله عز وجل، كما أجمع العلماء على أن القرآن الكريم معجز، وأن وجوه إعجازه متعددة، وأن التناسب والارتباط بين سوره، وآيات السورة الواحدة، وجمل الآية الواحدة أحد وجوه إعجازه، بل لو لم يكن في هذا الكتاب الكريم من وجوه إعجازه إلا روعة الترتيب، وإحكام السرد والنسج، وجمال التنسيق، وبديع التأليف لكان آية الآيات ومعجزة المعجزات، كيف وألوان إعجازه متعددة متنوعة؟ فسبحان من أرسل خير رسول، وأنزل عليه خير كتاب، بسفارة خير ملك، لدعوة خير أمة، في خير مكان وزمان ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ (الرعد: ٣١) أي: لكان هذا القرآن.

من أجل ذلك احتفى علماء الأمة القدامى منهم والمحدثون بالكلام عن التناسب والارتباط بين آيات القرآن الكريم وسوره، وهم في ذلك بين مقل ومكثر، بل وصنف بعضهم في المناسبات مصنفات، وأولوه اهتمامهم البالغ ، حتى غدا أحد علوم القرآن الكريم، ويسمى بـ (علم المناسبات) ولا يكاد يخلو مؤلف في علوم القرآن أو في التفسير من تناول المناسبات بين السور والآيات .

ولما كان الأمر على ما وصفت فقد صح العزم مني على تناول موضوع المناسبات بين السور والآيات بالدراسة، غير أني ألفت النظر إلي أمرين:

---

(١) انظر : العقد الفريد في مباحث من علوم القرآن المجيد ، د/ إبراهيم الديب صـ١٢.

الأول: ليس الغرض من الكلام في هذا الموضوع استقصاء بيان وجوه الربط بين كل سور القرآن الكريم وآياته ، وإنما المقصود هنا هو التعريف بهذا العلم، ومن ألف فيه ، وموقف العلماء منه ، وفائدته ، وقواعده الكلية ، وأنواع المناسبات بين السور والآيات ، وغير ذلك مما يأتيك خبره قريباً .

الثاني: بيان وجه المناسبة أمر اجتهادي لم يرد فيه عن النبي ﷺ أو صحابته شيء، والسبيل إلي الوصول إليه هو إعمال العقل بعد دراسة الآيات القرآنية، والوقوف على مراميها، ودراسة قواعد علم المناسبات الكلية أيضاً، ثم بعد ذلك تفويض العلم إلي الله عز وجل، وعدم الجزم بشيء مما أداه إليه اجتهاده في المسألة .

وحتى ينهض البحث بالمهمة التي أنيطت به ، ويحقق الهدف الذي يصبوا إليه، فقد قسمته إلي مقدمة ، وسبعة مباحث ، وخاتمة ، على النحو التالي :

أما المقدمة : فقد تناولت فيها أهمية الموضوع ، وسبب اختياره للدراسة ، وخطة الدراسة.

والمبحث الأول : تعريف علم التناسب ، وفوائد دراسته .

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : تعريف علم التناسب في اللغة والاصطلاح .

المطلب الثاني : فوائد دراسة علم تناسب السور والآيات .

المبحث الثاني : ظهور علم التناسب ، وأشهر العلماء المؤلفين فيه .

المبحث الثالث : الاعتراضات الموجهة لعلم المناسبات ، ودفعها .

المبحث الرابع : القواعد الكلية لدراسة علم المناسبات بين السور والآيات .

المبحث الخامس : التناسب بين السور الإجمالي والتفصيلي .

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : التناسب الإجمالي بين السور .

المطلب الثاني : التناسب التفصيلي بين السور .

المبحث السادس : التناسب بين الآيات الإجمالي والتفصيلي .

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : التناسب الإجمالي بين الآيات .

المطلب الثاني : التناسب التفصيلي بين الآيات .

المبحث السابع : المآخذ على بحوث العلماء التطبيقية في التناسب .
ثم الخاتمة : – أسأل الله تعالى حسنها – وقد ضمنها النتائج التي توصلت إليها ، والقضايا التي عالجتها في الدراسة .

وإنني إذ أقدم بحثي هذا ، فلا أدعي أنني بلغت فيه الكمال ، فالكمال لله تعالى وحده، فإن كنت قد قصرت فحسبي أنني ما قصرت في الاجتهاد ، وما قصرت – علم الله – عن عَمْد ، وإن كنت قد وفقت فمن عند الله تعالى .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ،
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم،
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المبحث الأول:
تعريف علم التناسب، وفوائد دراسته

وفيه مطلبان :
المطلب الأول : تعريف علم التناسب في اللغة والاصطلاح.

يعود مصطلح التناسب إلي المادة اللغوية: نسب، وعنها يقول ابن فارس: (النون، والسين، والباء، كلمة واحدة، قياسها اتصال شيء بشيء، ومنه النسب، سُمِّي لاتصاله، وللاتصال به، تقول : نسبتُ أنسُبُ ، وهو نسيبُ فُلان . ومنه النسيب في الشعر إلي المرأة ، كأنه ذِكْرٌ يتصل بها ... والنسيب : الطريق المستقيم ، لاتصال بعضه من بعض)(١).

ويقول الراغب : (النَّسَب والنِّسْبة : اشتراكٌ من جهة أحد الأبوين ، وذلك ضربان: نسب بالطول ، كالاشتراك من الآباء والأبناء ، ونسب بالعرض ، كالنسبة بين بني الإخوة، وبني الأعمام، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ (الفرقان:٥٤). وقيل: فُلان نسيب فُلان ، أي : قريبه ، وتستعمل النِّسبة في مقدارين متجانسين بعض التجانس يختص كل واحد منهما بالآخر)(٢).

ويقول ابن منظور: (النَّسَبُ يَكُونُ بالآباءِ ، ويكونُ إِلى الْبِلَادِ ، وَيَكُونُ فِي الصِّناعة ... وَتَقُولُ : لَيْسَ بَيْنَهُمَا مُناسَبة ، أَي مُشاكَلةٌ) (٣).

ويقول الزركشي: (والمناسبة في اللغة: المقاربة، وفلانٌ يناسب فلاناً، أي يقرب منه ويُشاكِله .. ومنه المناسبة في العِلَّة في باب القياس: الوصف المقارِب للحُكْم)(٤).

من النصوص السابقة يتضح أن مادة : (نسب) في اللغة تدور حول معنى اتصال شيء بشيء وقربه منه ، أو مُشاكلته له ، وتجانسه معه ، أو اشتراكهما معاً في أمر، واختصاص كل واحد منهما بالآخر ، فإذا أضفنا إلي هذا أن مصطلح التناسب وكذلك قرينه الآخر : (المناسبة) قد أُخذا من الفعلين المزيدين : ناسبَ وتناسبَ الدالين من حيث الصيغة والوزن

(١) مقاييس اللغة ٥ / ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، مادة : (نسب) .

(٢) مفردات ألفاظ القرآن صـ٨٠١ ، مادة : (نسب) .

(٣) لسان العرب ٦ / ٦٥ ، مادة : (نسب) .

(٤) البرهان في علوم القرآن ١ / ٣٥ .

(فاعل ، وتفاعل) على المشاركة والتفاعل بين طرفين، أدركنا إلي أي حد تتضافر المادة اللغوية والصيغة الاشتقاقية في التأكيد على معنى الترابط والاتصال في هذا المصطلح(١).

وأما عن معنى المناسبة في الاصطلاح فهو: علم يعرف به حسن ترتيب آيات القرآن، وترتيب سوره .

أو كما عرفها البقاعي : علم تعرف منه علل الترتيب (٢).

وقال ابن القيم : علم ترتيب المعاني المتآخية التي تتلاءم ولا تتنافر . ثم قال : والقرآن العظيم كله متناسب ، لا تنافر فيه ولا تباين (٣).

وعرفها الزركشي بأنها : معنى رابط يربط بين الآية والآية ، أو السورة والسورة (٤).

فالمناسبة : علم تعرف منه علل الترتيب بين آيات القرآن الكريم بعضها مع بعض ، وبين سوره بعضها إثر بعض(٥).

ومرجع المناسبة في الآيات ونحوها يعود إلي معنى رابط بينها عام أو خاص ، عقلي أو حسي أو خيالي، وغير ذلك من أنواع العلاقات والتلازم الذهني، كالسبب والمسبب ، والعلة والمعلول ، والنظيرين والضدين .. ونحوه (٦).

من خلال هذه التعريفات الاصطلاحية السابقة للمناسبة نلاحظ الاتصال الوثيق بين التناسب والبلاغة إذ هو (سر البلاغة) كما يؤكد البقاعي، فإذا كانت المناسبة عند البلاغيين هي ترتيب المعاني المتآخية(٧). فإن علم التناسب هو معرفة علل ترتيب الأجزاء، بل لقد عرف بعضهم البلاغة بأنها التناسب أو حسن النظام المرادف له عند أهل الاختصاص،

---

(١) انظر : الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية صـ١٥٣ .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١ / ٥ .

(٣) انظر : الفوائد المشوق إلي علوم القرآن صـ٨٧ ، ٨٨ .

(٤) انظر : البرهان في علوم القرآن ١ / ٣٥ .

(٥) الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن وسوره ، د / محمد أحمد القاسم صـ٣١ .

(٦) انظر : البرهان للزركشي ١ / ٣٥ ، والإتقان للسيوطى ٣ / ٣٢٣ .

(٧) انظر : المعجم المفصل في علوم البلاغة ، د / إنعام عكاوي ٦/٤٣٠ ، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٩٩٢م .

فهي: "القوة على البيان مع حسن النظام"، "فأبلغ الكلام ما حسُن إيجازه، وقل مجازه، وكثر إعجازه، وتناسبت صدوره وأعجازه"(١).

* الأسماء المرادفة لمصطلح التناسب :

إذا كان هذا العلم القائم على إظهار الترابط بين الآيات والسور قد عرف باسم علم التناسب والمناسبة ، لشيوع التعبير بهذين المصطلحين في بحوث المفسرين.

فقد اختلفت عبارتهم في صوغ هذا المعنى الرابط بين جمل القرآن وآياته وسوره ، كما اختلفت عبارتهم في تسميته ووصفه :

فمنهم من يقول عنه: إنه وجه الربط، ومنهم من يقول: إنه وجه التعلق، ومنهم من يقول: وجه النظم، ومنهم من يقول: إنه مناسبة الآية أو الآيات لما قبلها، ومنهم من يقول: إنه صلتها بسابقتها، ومنهم من يقول: إنه التآخي أو التآلف، ومنهم من يقول : إنه التعانق والتناسق ، وغير ذلك من الأوصاف التي تؤدي كلها غرضاً واحداً .

أما أكثر الكلمات شيوعاً في بحوثهم حول التناسب ، فهي (لمَّا) الظرفية المتضمنة معنى الشرط ، فقد كانت الأداة المفضلة عند جُل العلماء والمفسرين للتعبير عن ترابط الآيات واتساقها ، حتى لقد سمَّى البقاعي كتابه (نظم الدرر) باسم (كتاب لمَّا) في أُرجوزته التي ختم بها هذا الكتاب ، وفي هذا يقول : (فتم الكتاب في هذا النظم بـ (لمَّا)، لأني أكثرت من استعمالها فيه لهذا الغرض:

هذا كتاب لّما .. لمّ المعاني لّما (٢).

* الأصل الشرعي لعلم التناسب:

والأصل الشرعي الذي يستند إليه هذا العلم هو أن ترتيب الآيات توقيفيٌّ من الله عز وجل ، وهو ما أجمع عليه العلماء ، استناداً إلي النصوص المتواترة في هذا الشأن ، وفي هذا يقول ابن الزبير الثقفي : (اعلم أولاً أن ترتيب الآيات في سورها واقعٌ بتوقيفه ﷺ وأمره ، من غير خلاف في هذا بين المسلمين ، وإنما اختُلف في ترتيب السُّوَر على ما هي عليه) (٣). والراجح أنه توقيفي كترتيب الآيات ، والأدلة على هذا كثيرة مستفيضة

---

(١) انظر: العمدة لابن رشيق القيرواني ١/٢٤٤، دار الجيل، بيروت، ط٥/١٩٨١م .

(٢) نظم الدرر ٨ / ٦٢١ .

(٣) البرهان في تناسب سور القرآن صـ٧٣ .

ليس المجال مجال ذكرها [1]. ومن هنا يأتي هذا العلم ليبين حكمة هذا التوقيف ، وليستشف أسرار ذلك الترتيب .

---

(١) انظر في هذا الأمر : الانتصار لصحة نقل القرآن ٢ / ٨٩٢ ، ٩٠٨ – ٩٣٠ ، والمحرر الوجيز، لابن عطية ١ /٥٤ ، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ١٣ /٣٩٦ ، والبرهان للزركشي ٢٣٦/١ ، والإتقان للسيوطي ١ / ١٧٢ – ١٧٦ وغيرها .

المطلب الثاني: فوائد دراسة علم تناسب السور والآيات.

أشار البقاعي في نظمه إلي الفوائد العديدة لدراسة علم المناسبات بين السور والآيات، وهو – بحق – أفضل من قرر وفصل فوائد هذا العلم ، وإليك ما ذكره:

١) ترسيخ الإيمان بإظهار إعجاز القرآن، والتدليل على ارتباط آياته وسوره، وشدِّة اتصال بعضها ببعض، ونفي الشُّبَه حول نظم بعض الآيات، ونسق الترتيب فيها .

فقد جعل البقاعي التناسب الوجه الأهم والأصعب من وجوه الإعجاز ، يقول : (وبهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب ، ويتمكن من اللب ، وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين:

أحدهما : نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب.

والثاني : نظْمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب .

والأول أقرب تناولاً وأسهل تذوقاً، فإن كل من سمع القرآن من ذكيٍّ وغبيٍّ يهتز لمعانيه، وتحصل له عند سماعه روعة بنشاط، ورهبة مع انبساط، لا تحصل عند سماع غيره، وكلما دقق النظر في المعنى عظُم عنده موقع الإعجاز، ثم إذا عَبَرَ الفَطِنُ من ذلك إلى تأمل ربط كل جملة بما تليه وما تلاها خفي عليه وجهة ذلك، ورأى أن الجُمَل متباعدة الأغراض، متنائية المقاصد، فظن أنها متنافرة ... فإذا استعان بالله وأدام الطَّرْق لباب الفَرج، بإنعام التأمُّل، وإظهار العجز، والوثوق بأنه الذروة من إحكام الربط، كما كان في الأوج من حسن المعنى واللفظ ... انفتح له ذلك الباب، ولاحت له من ورائه بوارق أنوار تلك الأسرار)[1].

(فلا ريب أن الغرض الإعجازي كان من أبرز غايات هذا العلم ، وأهم عوامل ظهوره ، والذي جعله يتبوأ هذه المنزلة الكبيرة في حقل الدراسات القرآنية ، ذلك لأنه يكشف عن جانب مهم من جوانب الإعجاز البلاغي للقرآن ، وهو الترابط الكُلي بين جُمَله وآياته وسُوَره ، القائم على ترتيب مُحكَم لمعانيها ، واتصال وثيق بين مبانيها ، وقد كان التشكيك في هذه الحقيقة من أوائل الشُّبُهات التى أُثيرت حول أسلوب القرآن ، إذ راح بعض المتشككين يُثيرون أسئلة حول مدى تناسب آيات معينة من القرآن ، والتي كانت تحتاج إلي مزيد من التدبُّر لفهم كيفية التناسب فيها .

---

(١) انظر : نظم الدرر ١ / ٧ ، ٨ ، وانظر فيه أيضاً : ٧ / ١٧١ ، ٤٢٢ ، ٥٣٦ .

ومنذ ذلك الحين بدأ اهتمام العلماء يتزايد بهذا العلم ، فراحوا يرصدون وجوه التناسب ، وبدائع الترتيب بين جميع الآيات القرآنية ، وهو ما قادهم في النهاية إلي الكشف عن الإعجاز التناسبي بين آيات القرآن الكريم ، والذي عدُّوه بعد ذلك أحد جوانب الإعجاز البلاغي للقرآن) (١).

وفي تقرير هذا يقول الرازي في ختام تفسيره لسورة البقرة: (ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة، علِمَ أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً مُعجِز بحسب ترتيبه ونظْم آياته، ولعلّ الذين قالوا: إنه مُعجِزٌ بحسب أُسلوبه أرادوا ذلك، إلا أني رأيت جمهور المفسرين مُعرِضين عن هذه اللطائف ، غير متنبهين لهذه الأمور ، وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل:

وَالنَّجْمُ تَسْتَصْغِرُ الْأَبْصَارُ رُؤْيَتَهُ .. وَالذَّنبُ لِلطَّرْفِ لَا لِلنَّجْمِ فِي الصِّغَرِ (٢).

يقول الدكتور إبراهيم الديب: (إن هذا العلم يبرز ألفاظ القرآن وجمله وآياته وسوره مترابطة متماسكة ، كأنه نزل جملة واحدة ، وهذا الترابط نوع من أنواع إعجازه ، ودليل على أنه منزل من عند الله تعالى خالق القوى والقدر ، فما كان يمكن رسول الله ﷺ ولا أحداً من الخلق أن يرتبه هذا الترتيب ، مع العلم بأنه نزل منجماً في مدة طويلة، واختلفت أوقات نزوله ، وأماكنه ، وأسبابه ، وتنوعت موضوعاته .

ولم يشأ الله تعالى أن يكون تأليف كتابه المعجز وجمعه على حسب ترتيب نزوله، إذ لو ألف وجمع على حسب ترتيب نزوله لفات نوع من أنواع إعجازه وهو الترابط والتناسب بين أجزائه ، ولفهم بعض الناس أن آياته النازلة على أسباب ، خاصة بأسبابها ، أو فهموا أنه حلول وقتية للمشكلات التي وقعت في حياة رسول الله ﷺ فقط ، أو أنه خاص بعهد الرسول وأصحابه ، وإنما اقتضت حكمته تعالى أن يكون تأليفه وفق المناسبات البلاغية ، وأسرار الإعجاز البهية ليكون كتاباً معجزاً عاماً خالداً لا يختص ببعض دون آخر، ولا بقوم دون غيرهم ، ومن ثم رتبه الله هذا الترتيب العجيب الذي تركه عليه رسول الله ﷺ والذي نراه إلي اليوم ، وسيظل إلي أن تقوم الساعة ليحقق الإعجاز التام والعموم والخلود .

---

(١) انظر : الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية صـ١٥٨ .

(٢) انظر : مفاتيح الغيب ٧ / ١١٢ ، ومعترك الأقران للسيوطي ١ / ٤٣ .

ويضاف إلي ما أسلفنا أن في تجلية المناسبات بين الآيات والسور ، وإبراز إحكام ترتيب القرآن وإبداعه كما هو الواقع سداً لباب الكذب على القرآن الكريم من متطرفي الشيعة وغيرهم الزاعمين أن القرآن ضاعت منه آيات بل سور بتمامها إبّان جمعه في عهد الصحابة رضي الله عنهم، وحاش الصحابة الكرام من ذلك ، فهم حماة الدين ، وحراس الإسلام ، وحملة لوائه الأوائل ، بذلوا المهج والأرواح في سبيل الحفاظ على دينهم الحنيف، ودستوره المنيف ، وهو القرآن الكريم.

كما أن في ذكر المناسبات إبطالاً لزعم الزاعمين أن في القرآن كلمات مستوحشة غير مستساغة ككلمة: (ضيزي) فحين يذكر المفسرون المناسبات تتجلى عظمة القرآن وإعجازه، وتندفع افتراءات المفترين ، ويوصد الباب في وجه المرجفين)[1].

٢) الوصول إلي التفسير الحق في الآيات التي اختلف المفسرون في فهم معانيها .

وهذه الفائدة من أجل فوائد هذا العلم، وتمثل جانبه التحليلي والتقعيدي، إذ لا تقتصر المسألة هنا على إثبات وجود التناسب بين الآيات، كما هو غاية الفائدة الأولى، وإنما رصد جميع الأسس المعنوية التي يتم الربط بين الآيات بناءً عليها، ثم تتبُّع الأشباه والنظائر فيها، للوصول إلي القواعد الكُلِّية، والضوابط التفصيلية التي تُوجِّه فن التناسب القرآني، فتنتظم على أساسها الآيات، وتتناسق من خلالها المعاني، وهي القواعد التي تُرشِد المفسِّر ودارس القرآن إلي الأُسُس العامة التي يسير عليها القرآن في المزاوجة بين المعاني، والانتقال بين الموضوعات، حتى إذا اختلفت الأقوال في إحدى الآيات، وتعددت التأويلات، فستكون هذه القاعدة إحدى أدوات المفسر المهمة في الترجيح، واختيار القول الأقرب إلي الصواب[2].

فذكر المناسبة يعين على فهم الآية فهماً سديداً ، ويساعد على استلهام معناها ومعرفة مرماها ، فهي مصباح منير يضيء الطريق للمفسر ، ويأخذ بيده إلي الفهم الرشيد ، فذكرها لا يقل أهمية عن ذكر سبب النزول [3].

٣) الكشف عن سر ظاهرة التكرار في القرآن الكريم .

---

(١) انظر : العقد الفريد في مباحث من علوم القرآن المجيد صـ١٥– ١٨ ، وانظر : بديع البيان في علوم القرآن ، د / حواس صـ٤١ .

(٢) انظر : الوحدة السياقية للسورة صـ١٥٩ .

(٣) انظر : العقد الفريد ، د / إبراهيم الديب صـ١٨ .

حيث ربط البقاعي بين ظاهرة التكرار والوحدة السياقية الخاصة بكل سورة من سور القرآن الكريم، وقرر هذا المبدأ في مواضع عديدة من كتابه، ومنها قوله – وهو يتحدث عن علم المناسبات الذي هو أحد مكونات الوحدة السياقية، رابطاً بينه وبين ظاهرة التكرار المعنوي–: (وبه يتبين لك أسرار القصص المكررات، وأن كل سورة أعيدت فيها قصة، فلمعنى أدعى في تلك السورة استدل عليه بتلك القصة، غير المعنى الذي سيقت له في السورة السابقة، ومن هنا اختلفت الألفاظ بحسب تلك الأغراض، وتغيرت النظوم بالتأخير والتقديم، والإيجاز والتطويل مع أنها لا يخالف شيء من ذلك أصل المعنى الذي تكونت به القصة)(١).

ولعل من أبرز الشواهد التي طبق فيها البقاعي كلامه مقارنته بين سياق قصة بني إسرائيل في سورة (البقرة)، وسياقها في سورة (الأعراف)، فقد قال وهو يتناول الآيات التي تعرض هذه القصة في سورة (الأعراف): (اعلم أنه لا تكرير في هذه القصص ، فإن كل سياق منها لأمر لم يسبق مثله ، فالمقصود من قصة موسى عليه السلام وفرعون –عليه اللعنة والملام– هذا الاستدلال الوجودي على قوله: ﴿وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (الأعراف:١٠٢)، ومن هنا تعلم أن سياق قصة بني إسرائيل بعد الخلاص من عدوهم ، لبيان إسراعهم في الكفر ، ونقضهم للعهود ، واستمر سبحانه في هذا الاستدلال إلى آخر السورة ، وما أنسب : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ... ﴾ (الأعراف:١٧٢) الآية، لقوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ﴾ (الأعراف:١٠٢) ... هذا بخلاف المقصود من سياق قصص بني إسرائيل في البقرة ، فإنه هناك للاستجلاب للإيمان ، بالتذكير بالنعم ، لأن ذلك في سياق خطابه سبحانه لجميع الناس بقوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ (البقرة:٢١)، ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ (البقرة:٢٨)، وما شاكله من الاستعطاف ، بتعداد النعم ، ودفع النقم)(٢).

كما أن هناك ربطاً بين ظاهرة التكرار المعنوي في القرآن ، وبين مقصد السورة ، وفي ذلك يقول البقاعي : (اقتضت حكمته أن يكون هذا الذكر جامعاً، لكونه ختاماً، وأن يكون معجزاً، لكونه تماماً، ونزله على حسب التدريج شيئاً فشيئاً، مكرراً فيه ذكر القصص ، سائقاً

(١) نظم الدرر ١ / ٨ .

(٢) انظر : نظم الدرر ٣ / ١٠٤ .

في كل سورة منها ما يناسب المقصود من تلك السورة ، معبراً عما يسوقه منها بما يلائم الغرض من ذلك السياق ، مع مراعاة الواقع ، ومطابقة الكائن)[١].

ويقول أيضاً عند تفسيره لسورة آل عمران: (أنبأ سبحانه وتعالى في هذه السورة الخاصة بقصة مريم عليها الصلاة والسلام من تقبلها وإنباتها، وحسن سيرتها بما نفي اللبس الذي ضل به النصارى، فيذكر في كل سورة ما هو الأليق والأولى بمخصوص منزلها، فلذلك ينقص الخطاب في القصة الواحدة في سورة ما يستوفيه في سورة أخرى لاختلاف مخصوص منزلها، كذلك الحال في القصص المتكررة في القرآن من قصص الأنبياء، وما ذكر فيه لمقصد الترغيب والتثبيت والتحذير ، وغير ذلك من وجوه التنبيه) [٢].

(١) المصدر السابق ٥ / ٣٩١ .

(٢) المصدر السابق ٢ / ٧٣ .

المبحث الثاني:
ظهور علم التناسب ، وأشهر العلماء المؤلفين فيه.

متى بدأ الاهتمام بعلم المناسبات؟ وعلى يد مَنْ ؟ وكيف تطور عبر العصور؟

إن الزركشي يقدم إجابة محددة على الشق الأول من السؤال حين يقول: (قال الشيخ أبو الحسن الشهراباني : أول من أظهر ببغداد علم المناسبة ، ولم نكن سمعناه من غيره هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري ، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب ، وكان يقول على الكُرسيّ إذا قُرئ عليه الآية : لِمَ جُعِلتْ هذه الآية إلى جنب هذه ؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة ؟ وكان يُزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة)[1].

وإذا كانت المصادر التاريخية تذكر أن الحافظ أبا بكر عبد الله بن محمد النيسابوري قد توفي سنة ٣٢٤هـ[2]. فإن هذا يعني أنه يمكن تأريخ بداية هذا العلم في أواخر القرن الثالث الهجري، أو في مستهل القرن الرابع على الأكثر.

غير أن البذور الأولى لهذا العلم تعود إلي ما قبل هذا التاريخ بكثير ، ولعلها قد بدأت مع بداية علم التفسير نفسه ، ففي كتب التفسير الكبرى كثير من النقول عن كبار الصحابة والتابعين، كابن عباس، وقتادة، وأبي العالية التي تُبرِز عنايتهم بإظهار ارتباط الآيات وتناسب معانيها ، وذلك كما في الخبر التالي:

عن قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (المائدة:١١٦)، فقد سُئل :"متى يكون ذلك ؟ قال: يوم القيامة، ألا ترى أنه قال: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾" (المائدة:١١٩)[3].

بل إن الطبري نفسه (ت٣١٠هـ) الذي كان معاصراً لأبي بكر النيسابوري، مع سبقه له بزمن يسير كان من أكثر المفسرين المتقدمين عناية باتصال الآيات وتناسق معانيها ، وكثيراً ما كان يعتمد عند اختلاف الأقوال القول الذي يحقق اتصال الآيات وتواصل

(١) البرهان ٣٦/١ ، وانظر : الإتقان ٣٢٢/٣، ومعترك الأقران للسيوطي ٤٣/١ ، ٤٤.

(٢) انظر : الأعلام للزركلي ١١٩/٤ ، والبداية والنهاية ١٩٧/١١ ، ١٩٨ .

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١١ / ٢٣٥ ، ط / شاكر .

المعاني معتمداً على قاعدته الذهبية في التأويل، وهي أن (الذي هو أولى بالآية أن يُوجَّه تأويلها إليه وهو ما كان نظير قصة الآية قبلها والآية بعدها ، إذ كان خبرها لخبرهما نظيراً وشكلاً ، إلا أن تقوم حُجَّة يجب التسليم لها بخلاف ذلك)(١).

وقد تتابع العلماء بعد ذلك في الاحتفاء بهذا العلم، وفي استنباط قواعده والتوسع في مسائله، وراح كثير من المفسرين يتتبعون شواهده في القرآن، لكن إذا أردنا الاقتصار على أهم هؤلاء العلماء والمفسرين، وأكثرهم عناية بهذا العلم حسب التسلسل الزمني، فيمكن التوقف ابتداءً من القرن الخامس الهجري عند الطوسي (ت٤٦٠هـ) صاحب تفسير: (التبيان)، فعنايته بهذه المسألة في تفسيره واضحة للعيان، وفيه يتبدَّى تأثُره ببحوث المعتزلة في هذه المسألة، فهو يُشيد في مقدمة كتابه بتفاسيرهم، ولاسيما تفسيري: أبي مسلم الأصفهاني (ت ٣٢٢هـ)، وعلي بن عيسى الرُّمَّاني (ت٣٨٦هـ)، وينقل عنهم، وبخاصة عن شيخهم أبي علي الجُبَّائي (ت٣٠٣هـ) بعض التخريجات حول تناسب الآيات(٢).

وفي القرن السادس الهجري يكثر العلماء المهتمون بفن التناسب، ابتداءً من الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) في تفسيره: (الكشاف) الذي أشاد أكثر من مرَّة بظاهرة الترتيب والتناسب بين آيات القرآن الكريم ، يقول في معرض حديثه عن تناسق النظم في الآيات: ٨٨-٩٠ من سورة النمل: (فانظر إلى بلاغة هذا الكلام، وحُسْن نظْمه وترتيبه ، ومكانة إضْماده ، ورصانة تفسيره ، وأخذ بعضه بحُجْزة بعض ، كأنما أُفْرِغ إفراغاً واحداً)(٣).

ثم ابن العربي (ت ٥٤٣هـ) الذي نقل الزركشي احتفاءه بهذا العلم في قوله: (ارتباط آي القرآن بعضها ببعض ، حتى تكون كالكلمة الواحدة متَّسقة المعانى ، منتظمة المباني عِلْمٌ عظيم لم يتعرض له إلا عالِم واحد عمل فيه سورة البقرة ، ثم فتح الله لنا فيه، فلما لم نجد له حَمَلَة ، ورأينا الخلْق بأوصاف البَطَلَة ، ختمنا عليه ، وجعلناه بيننا وبين الله وردناه إليه)(٤).

(١) المصدر السابق ٥٢٢/٢، ط/شاكر، وانظر فيه أيضاً: ٣١٤/١، ٧١/٢، ٢٨٨/٣.
(٢) انظر : التبيان في تفسير القرآن ١ / ١ ، ٤٩٠ ، ٢ / ٣٥٣ .
(٣) الكشاف ٣/ ٣٨٧، وانظر منه أيضاً: ٣/ ١٨، ٢٣٨، ٣٢١، ٤/ ٣٥٨ ، ٤٤٣.
(٤) البرهان ١ / ٣٦ ، وانظر : الإتقان للسيوطي ٣ / ٣٢٢ .

ثم الطبرسي (ت ٥٤٨هـ) في تفسيره: (مجمع البيان) الذي تجاوز كل من سبقوه في العناية بهذا العلم ، وفي تتبع شواهده من القرآن ، مصرحاً في مقدمة تفسيره بانتهاجه لمبدأ (ذكر انتظام الآيات) ، ومستفيداً من بحوث المعتزلة في التناسب ، ولاسيما أبو مسلم الأصفهاني ، والرُّمَّاني (١).

حتى إذا وصلنا إلي الرازي (ت ٦٠٦هـ) وتفسيره (مفاتيح الغيب) الذي ألفه في نهايات هذا القرن وبدايات القرن السابع، نكون قد وصلنا إلي المؤسِّس الفعلي لهذا العلم في حقل التفسير ، إذ لا تكاد تمر بضع آيات من أيّ سورة ، دون أن يُبين كيفية اتصالها ، ووجوه تناسبها مع ما قبلها من الآيات (٢).

وفي (مفاتيح الغيب) يتبدى بشكل أوضح إسهام المعتزلة في هذا العِلم ، فقد أكثر الرازي من النقل عنهم في تعلُّق الآيات ، وبخاصة عن: أبي مسلم الأصفهاني ، والقاضي عبد الجبار(٣) (ت٤١٥هـ) . ومع أهمية هذه النُّقول، وما في بعضها من ثراء ودقة ، ولاسيما مع ما أضافه الرازي إليها من اجتهاداته الخاصة ، إلا أن بعض هذه النقول والاجتهادات كان يتسم بقدر كبير من التمحُّل ، والاضطراب، وقسْر المعاني ، مما ينزه عنه القرآن (٤).

وقد أثَّر الرازي في كثير من المفسرين الذين جاءوا بعده، فزادت عنايتهم بهذا العلم، وأكثروا من النقل عنه في تحرير تناسب الآيات، ولعل أبرز المتأثرين به نظام الدين النيسابوري (ت ٧٢٨هـ) في تفسيره (غرائب القرآن ورغائب الفرقان)، وشمس الدين الأصفهاني (ت ٧٤٩هـ) في تفسيره (أنوار الحقائق الربَّانية)، وابن عرفة (ت ٨٠٣هـ) في تفسيره الذي رواه عنه تلاميذه، إلا أن ابن عادل الحنبلي (ت ٨٨٠هـ) الذي جاء بعد ذلك يظل أشد المتأثرين به ، وأكثرهم نقلاً عنه في موضوع المناسبات ، وذلك في تفسيره (اللباب في علوم الكتاب).

فإذا تجاوزنا هؤلاء العلماء والمفسرين الناقلين عن الرازي ، والمتأثرين به ، وعدنا إلي الرصد التاريخي المتسلسل ، فسنجد أنه مع حلول القرن السابع الهجري يُحرر ناصر الدين

---

(١) مجمع البيان ١/ ٢٢، ٤٣٢، ٣/ ٣٢٧، ٤ / ١٨٦، ٢٨٤ ، ١٠ / ٧٩ ، ١٢٣.
(٢) انظر على سبيل المثال: مفاتيح الغيب ٢/ ١٤١ ، ٣/ ٢٧، ٩/ ١١٠، ١٠ / ١١٣.
(٣) انظر على سبيل المثال: مفاتيح الغيب ٤/١٥١، ٦/٤٧، ٧/ ٣٩، ٩/ ٢٩.
(٤) انظر : مفاتيح الغيب ٤ / ١٣٢ ، ١٤٢ ، ٦ / ٤٧ ، ٨ / ١٢٤ .

البيضاوي (ت ٦٨٥هـ) تفسيره (أنوار التنزيل) ، مظهراً فيه عناية واضحة بفن التناسب[(١)]، ومتأثراً في هذا بكل من الزمخشري ، والرازي . وفي أواخر هذا القرن أيضاً، أو ربما في بداية القرن التالي له يظهر أول تأليف مستقل في هذا العلم على يد ابن الزبير الثقفي (ت٧٠٨هـ) في كتابه: (البرهان في تناسب سور القرآن)، ويتضح من عنوانه أنه مقتصر على تتبع وجوه التناسب بين السور ، دون الآيات .

أما في القرن الثامن الهجري فيظهر في مستهله شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) الذي عُني بمسألة التناسب في تفسيره لكثير من الآيات القرآنية ، داعياً إلي تدبر (تناسب القرآن، وارتباط بعضه ببعض)[(٢)].

أما أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) فقد جعل التناسب أحد أُسُسه المنهجية في التفسير ، يقول في مستهل تفسيره : (ثم أشرع في تفسير الآية ذاكراً سبب نزولها ، إذا كان لها سبب ، ونسخها ، ومناسبتها وارتباطها بما قبلها)[(٣)].

ثم جاء بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ) في ختام هذا القرن ليُضفِيَ على هذا المفهوم لأول مرة صفة العلم المستقل ، وليفرده بالبحث والتبويب جاعلاً منه أحد علوم القرآن ضمن كتابه (البرهان في علوم القرآن) ، وفي تقرير أهمية هذا العلم وفائدته يقول : (اعلم أن المناسبة علم شريف تحزر به العقول ، ويعرف به قدر القائل فيما يقول ... وفائدته : جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكَم المتلائم الأجزاء ، وقد قلَّ اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته)[(٤)].

وفي القرن التاسع الهجري يُصنِّف علي المهايمي (ت ٨٣٥هـ) تفسيره (تبصير الرحمن) جاعلاً من اعتماد التناسب بين الآيات أحد مبادئه الأساسية في التفسير، ومُصرِّحاً بذلك في مستهل تفسيره [(٥)].

ثم يظهر برهان الدين البقاعي (ت٨٨٥هـ) ، فيؤلف كتابه الضخم (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) ، وهو ثاني تأليف مستقل في هذا العلم بعد كتاب ابن الزبير ،

---

(١) انظر : أنوار التنزيل ١ / ١٣٥ ، ١٨٦ ، ٢١٥ ، ٥ / ٩٨ .

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ١٤/ ٤٦، ١٣٤، ٤٤٨، ١٥/ ٩٤ ، ١٠٤ ، ١٧ / ٥٣٥.

(٣) البحر المحيط ١ / ١٠٣ .

(٤) البرهان في علوم القرآن ١ / ٣٥ ، ٣٦ .

(٥) انظر : تبصير الرحمن للمهايمي ١ / ٤ ، ٥ .

وقد حرر البقاعي القول في هذا العلم في مقدمة كتابه، مبيناً مفهومه ، وموضوعه، وشرطه المبدئي، ومنزلته بين العلوم، وفوائده ، ثم مضى البقاعي بعد هذه المقدمة يستعرض سور القرآن، سورة سورة، محللاً وجوه التناسب وأنواع الروابط، ليس فقط بين السور، أو بين الآيات، بل بين الجمل والكلمات في الآية الواحدة .

وفي أواخر هذا القرن وأوائل القرن التالي له يُسهِم السيوطي (ت٩١١هـ) في هذا العلم من خلال عدة مؤلفات، ابتداءً من (الإتقان في علوم القرآن) الذي جارَي فيه الزركشي في إفراد هذا العلم بباب خاص به ناقلاً عنه معظم مادته فيه[١]. ثم كتابه (معترك الأقران في إعجاز القرآن) الذي جعل فيه تناسب الآيات هو الوجه الرابع من وجوه هذا الإعجاز[٢]، ثم تفسيره البياني الذي صنَّفه في أسرار التنزيل وبدائع النظم القرآني، وهو كتاب (قطف الأزهار في كشف الأسرار) الذي اعتنى فيه بالمناسبات بين السور والآيات، ونصَّ على هذا في مقدمة الكتاب حين قال: (وأُبيِّن مناسبة ترتيب السور، والخفيَّ من مناسبات الآيات)[٣]، وقد لخَّص من هذا الكتاب مناسبات السور وحدها، وأفردها في كتاب مستقل سماه (تناسق الدرر في تناسب السور).

وفي القرن العاشر الهجري دوّن محيي الدين شيخ زاده (ت٩٥١هـ) حاشيته على تفسير البيضاوي، وقد اعتنى فيها بموضوع المناسبات[٤]. ثم يظهر أبو السعود العمادي (ت٩٨٢هـ) بتفسيره (إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم) الذي اعتنى فيه بالمناسبات متأثراً في هذا بكل من الزمخشري والبيضاوي.

وفي القرن الثاني عشر الهجري ألف العالم الهندي محمد التهانوي (١١٥٨هـ) كتاباً متخصصاً في هذا العلم سماه (سبق الغايات في نسق الآيات) تتبع فيه وجوه التناسب بين الآيات في جميع سور القرآن، وقد أخذ معظم مادته –كما صرح في المقدمة – من تفسيري الرازي وأبي السعود ، ثم ظهر في القرن الثالث عشر شهاب الدين الألوسي (ت١٢٧٠هـ) بتفسيره (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) وقد اهتم فيه كثيراً بذكر المناسبات بين الآية والآية وبين السورة والسورة .

---

(١) انظر : الإتقان ٣ / ٣٢٢ – ٣٣٨ .

(٢) انظر : معترك الأقران ١ / ٤٣ .

(٣) قطف الأزهار ١ / ٩٨ .

(٤) انظر: حاشية شيخ زاده ١/ ٢٧٩، ٦٩٤، ٢/ ١٦٠، ٣١٨، ٣/ ٣٤، ٤/ ٩١.

ومن المحدثين الذين كتبوا في المناسبات أبو الفضل عبد الله بن محمد الصديق الغماري ، صنف كتاباً بعنوان (جواهر البيان في تناسب سور القرآن) فرغ من تأليفه عام (١٣٨٥هـ) ، والدكتور محمد أحمد يوسف القاسم كتب رسالته التي نال بها الدكتوراة في الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن وسوره (١).

إلي غير هؤلاء من العلماء القدامى والمحدثين الذين عنوا بذكر المناسبات في تفاسيرهم وحفلت بها مؤلفاتهم ، أعظم الله أجرهم وأجزل مثوبتهم.

---

(١) انظر في ذلك: الوحدة السياقية صـ١٦٠، والعقد الفريد، د/ الديب صـ١٨.

المبحث الثالث:

الاعتراضات الموجهة لعلم المناسبات ودفعها.

لعلى بعد هذا العرض الذي أظهر بوضوح المنزلة الكبيرة التي يتبوؤها علم المناسبات في حقل الدراسات القرآنية ، أكون قد وصلت إلي الموضع الأنسب لعرض وجهة النظر الأخرى حول هذا العلم، فقد أثار بعض العلماء تساؤلات عديدة حول المبدأ الرئيس الذي ينهض عليه هذا العلم ، وهو تتبع المناسبات المعنوية والأسلوبية الكامنة بين الآيات المتعاقبة والسور المتتالية ، حسب ترتيبها في المصحف ، وليس حسب ترتيبها في النزول ، كما شككوا أيضاً في مدى قدرة هذا العلم على تحقيق الغاية النهائية التي يصبو إليها ، وهي الكشف عن جانب من جوانب الإعجاز البلاغي للقرآن ، ذلك لأن هناك مواضع عديدة في القرآن يغمض فيها وجه التناسب ، ويصعب جداً الربط بين الآيات فيها ، إلا بالتمحُّل، وهذا ما وقع فيه فعلاً بعض المتصدِّين لإبراز التناسب بين آيات القرآن الكريم ، مما جعلهم أبعد ما يكونون عن تحقيق الغاية النهائية التي من المفترض أن يقودهم هذا العلم إليها، وهي الكشف عن البلاغة " الإعجازية " للقرآن .

وكان عز الدين بن عبد السلام في المتقدمين هو أول من أثار هذه التساؤلات، ثم تبعه الشوكاني من المتأخرين. وفي هذا يقول العزّ: (من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض، ويتشبث بعضه ببعض، لئلا يكون مقطعًا متبترًا، وهذا بشرط أن يقع الكلام في أمر متحد؛ فيرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحد الكلامين بالآخر، ومن ربط ذلك فهو مُتكلِّف لما لم يقدر عليه إلا بربط ركيك، يُصان عن مثله حَسَنُ الحديث، فضلاً عن أحسنه. فإن القرآن نزل على الرسول ﷺ في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شُرِعت لأسباب مختلفة غير مؤتلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض ، إذ ليس يحسُن أن يرتبط تصرف الإله في خلقه وأحكامه بعضها ببعض مع اختلاف العلل والأسباب) (١).

بمعنى أن المناسبة بين الآيات أو السور تُذكر إذا كانت ظاهرة جلية لا تكلف في ذكرها بأن كان الكلام واحداً يرتبط آخره بأوله ، أو تناول موضوعاً واحداً ، أو نزل في شيء واحد ، أما إذا كانت الآيات النازلة مختلفة الأغراض متنوعة الموضوعات ، فلا تُذكر المناسبة في هذه الحالة لأن ذكرها يستلزم التكلف في التفسير وقد نهينا عنه .

(١) الإشارة إلي الإيجاز في بعض أنواع المجاز صـ٣٣٨ ، وانظر : البرهان ١ / ٣٧ .

ثم جاء الشوكاني بعد العزّ بستة قرون، ليؤكد كلامه، وليتوسع في الاستدلال عليه، وقد أطال رحمه الله القول في هذه المسألة، وسأثبت كلامه بتمامه، لاستيعاب جميع اعتراضاته، يقول: (اعلم أن كثيراً من المفسرين جاءوا بعلم مُتكلّف، وخاضوا في بحر لم يُكلّفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلّقة بكتاب الله سبحانه، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف، فجاءوا بتكلُّفات وتعسُّفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتنزه عنها كلام البُلَغاء، فضلاً عن كلام الرب سبحانه، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف ، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف، كما فعله البقاعي في تفسيره، ومن تقدَّمه حسبما ذكر في خطبته، وإن هذا من أعجب ما يسمعه من يعرف أن هذا القرآن ما زال ينزل مفرَّقا على حسب الحوادث المقتضية نزوله منذ نزول الوحي على رسول الله ﷺ إلى أن قبضه الله عز وجل إليه، وكل عاقل – فضلاً عن عالِم – لا يشكُّ أن هذه الحوادث المقتضية نزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها، بل قد تكون متناقضة[(١)]، كتحريم أمر كان حلالاً، وتحليل أمر كان حراماً، وإثبات أمر لأشخاص يناقض ما كان قد ثبت لهم قبله، وتارةً يكون الكلام مع المسلمين، وتارةً مع الكافرين، وتارةً مع مَن مضي، وتارةً مع مَن حضر، وحيناً في عِبادة، وحيناً في مُعاملة، ووقتاً في ترغيب، ووقتاً في ترهيب، وآونة في بشارة، وآونة في نذارة، وطوراً في أمر دنيا، وطَوراً في أمر آخرة، ومرة في تكاليف آتية، ومرة في أقاصيص ماضية، وإذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف، ومتباينة هذا التباين الذي لا يتيسَّر معه الائتلاف ، فالقرآن النازل فيها هو باعتباره نفسه مختلف اختلافها، فكيف يطلب العاقل المناسبة بين الضبّ والنون ، والماء والنار ، والملاح والحادي)[(٢)].

ثم يُبين الدافع لاعتراضه على علم المناسبة، فيقول: (وهل هذا إلا مِن فتح أبواب الشك، وتوسيع دائرة الريب على مَن في قلبه مَرَض، أو كان مرضه مجرد الجهل والقصور؟ فإنه إذا وجد أهل العِلْم يتكلّمون في التناسب بين جميع آي القرآن، ويُفرِدون ذلك بالتصنيف، تقرر عنده أن هذا أمر لابدَّ منه، وأنه لا يكون القرآن بليغاً مُعجِزاً إلا إذا

(١) ليس في القرآن الحكيم ولا في أحكامه تناقض، وفي عبارة الشوكاني شيء من التساهل، ولعله يعنى اختلاف الأحكام عن طريق النسخ مع اختلاف الزمن وهو الظاهر.

(٢) فتح القدير ١ / ٧٢ .

ظهر الوجه المقتضى للمناسبة، وتبيَّن الأمر الموجب للارتباط، فإن وجد الاختلاف بين الآيات، فرجع إلى ما قاله المتكلِّمون في ذلك، فوجده تكلُّفاً محضاً، وتعسُّفاً بيِّناً انقدح في قلبه ما كان منه في عافية وسلامة)[1].

ثم يستأنف ذِكر اعتراضاته على العلم، وأبرزها أن عِلم التناسب قائم: (على فرض أن نزول القرآن كان مترتباً على هذا الترتيب الكائن في المصحف، فكيف وكل من له أدنى علم بالكتاب وأيسر حظ من معرفته يعلم علماً يقيناً أنه لم يكن كذلك ، ومن شك في هذا ، وإن لم يكن مما يشك فيه أهل العلم رجع إلى كلام أهل العلم العارفين بأسباب النزول، المطلعين على حوادث النبوة، فإنه ينثلج صدره، ويزول عنه الريب بالنظر في سورة من السور المتوسطة، فضلاً عن المطوَّلة، لأنه لا محالة يجدها مشتملة على آيات نزلت في حوادث مختلفة، وأوقات متباينة لا مطابقة بين أسبابها، وما نزل فيها في الترتيب. بل يكفي المقصِّر أن يعلم أن أول ما نزل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق:١)، وبعده: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ (المدثر:١)، ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ (المزمل:١)، وينظر أين موضع هذه الآيات والسور في ترتيب المصحف. وإذا كان الأمر هكذا، فأيُّ معنى لطلب المناسبة بين آيات نعلم قطعاً أنه قد تقدَّم في ترتيب المصحف ما أنزله الله متأخراً، وتأخر ما أنزله الله متقدماً، فإن هذا عمل لا يرجع إلى ترتيب نزول القرآن ، بل إلى ما وقع من الترتيب عند جمعه ممن تصدى لذلك من الصحابة، وما أقلَّ نفع مثل هذا، وأنزر ثمرته، وأحقر فائدته! بل هو عند من يفهم ما يقول وما يُقال له من تضييع الأوقات وإنفاق الساعات في أمر لا يعود بنفع على فاعله، ولا على من يقف عليه من الناس. وأنت تعلم أنه لو تصدَّى رجل من أهل العلم للمناسبة بين ما قاله رجل من البُلَغاء من خُطَبه ورسائله وإنشاءاته ، أو إلى ما قاله شاعر من الشُّعَراء من القصائد التي تكون تارةً مدحاً، وأخرى هِجاًء ، وحيناً نسيباً ، وحيناً رِثاءً ، وغير ذلك من الأنواع المتخالفة ، فعمد هذا المتصدِّي إلى ذلك المجموع، فناسب بين فقره ومقاطعه ، ثم تكلَّف تكلُّفاً آخر، فناسب بين الخطبة التي خطبها في الجهاد ، والخطبة التي خطبها في الحج، والخطبة التي خطبها في النكاح ، ونحو ذلك ، وناسب بين الإنشاء الكائن في العزاء ، والإنشاء الكائن في الهناء ، وما يشابه ذلك ، لعُدَّ هذا المتصدي لمثل هذا مصاباً في عقله ، متلاعباً بأوقاته ، عابثاً بِعُمْره الذي هو رأس ماله .

(١) المصدر السابق .

وإذا كان مثل هذا بهذه المنزلة، وهو ركوب الأُحموقة في كلام البشر، فكيف تراه يكون في كلام الله سبحانه الذي أعجزت بلاغته بُلَغاء العرب، وأبكمت فصاحته فُصحاء عدنان وقحطان؟ وقد علِم كل مقصِّر وكامل أن الله سبحانه وصف هذا القرآن بأنه عربي، وأنزله بلغة العرب، وسلك فيه مسالكهم في الكلام، وجرى به مجاريهم في الخطاب. وقد علمنا أن خطيبهم كان يقوم المقام الواحد، فيأتي بفنون متخالفة، وطرائق متباينة، فضلاً عن المقامين، فضلاً عن المقامات، فضلاً عن جميع ما قاله ما دام حياً، وكذلك شاعرهم. ولنكتف بهذا التنبيه على هذه المفسدة التي تعثَّر في ساحاتها كثير من المحققين، وإنما ذكرنا هذا البحث في هذا الموطن، لأن الكلام هنا قد انتقل مع بني إسرائيل بعد أن كان قبله مع أبي البشر آدم عليه السلام، فإذا قال مُتكلِّف: كيف ناسب هذا ما قبله؟ قلنا لا كيف!)[1].

وقال الطاهر بن عاشور : (إن فخر الدين الرازي ، وبرهان الدين البقاعي عند ربطهما بين الآيات في تفسيرهما لم يأتيا في كثير منها بما فيه مقنع ، وإن بيان المناسبة بين السور ليس أمراً لازماً ولا حقاً على المفسر) [2].

قال الدكتور إبراهيم الديب: (والحق أن هذا الفريق مغالون في رأيهم ، مبالغون في وجهة نظرهم ، فنزول آيات مختلفة الأغراض لا ينفي أن بينها مناسبة ، ولا يمنع من محاولة الكشف عنها ليظهر وجه من وجوه إعجاز القرآن المجيد ، وفي هذا خدمة لكتاب الله تعالى. ولا يستلزم ذكرها التكلف ، لأن الآيات التي تدق فيها المناسبة ويحتاج ذكرها إلي إعمال الفكر وبذل الجهد قليلة معدودة ، وهي إن خفيت على بعض العلماء لا تكون خافية على غيرهم:

وإذا لم تر الهلال فسلم .. لأناس رأوه بالأبصار

ولا جدل في أن الاشتغال بإبراز المناسبة اجتهاد ، والمجتهد مأجور .

ولو قعدنا عن ذكر المناسبات بين تلك الآيات بحجة أن في ذكرها تكلفاً ، لقعدنا عن جانب من العلم ، وركنا إلي الدعة ، وفاتتنا لطائف بهية ، وضاع منا خَيْر كثير، وفتحنا باباً يلج منه أعداء الإسلام للطعن في القرآن الكريم .

(١) المصدر السابق ١ / ٧٣ ، وانظر فيه أيضاً ١ / ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير ١ / ١٠٧ .

فعلم المناسبات نفيس ، جم الفوائد ، كثير الخيرات ، ويحتاج إلي مهارة فائقة، وفطنة وشفافية ، وتوفيق من الله تعالى ، ومن ثم تفاوتت فيه أقدام العلماء وأقدارهم ، ومرده إلي بنات أفكارهم واجتهادهم) [1].

ويمكن تلخيص أهم الاعتراضات التي وردت في نصوص العلماء السابقة في خمسة فهاكها والجواب عنها[2]:

الاعتراض الأول :

أن المتتبعين لمناسبات القرآن قد أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه شرعاً في الأمور المتعلقة بالقرآن الكريم .

وفي الجواب عنه أقول: قد ورد هذا النهي فعلاً في أحاديث نبوية وآثار عن الصحابة والتابعين لعل أشهرها ما ورد مرفوعاً: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ، فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ»[3].

وقد بيَّن العلماء المراد من هذا الحديث، ووضحوا أنه لا يشمل الاجتهاد في التأويل المنضبط بقوانين العلم، وفي هذا يقول ابن عطية : (ومعنى هذا أن يُسأل الرجل عن معنى في كتاب الله ، فيتسوَّر عليه برأيه ، دون نظر فيما قال العلماء ، واقتضته قوانين العلوم ، كالنحو والأصول ، وليس يدخل في هذا الحديث أن يُفسِّر اللغويون لُغته، والنُّحاة نحوه، والفقهاء معانيه، ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر، فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلاً بمجرد رأيه)[4].

ويقول ابن تيمية معلقاً على الآثار الواردة عن تحرُّج بعض الصحابة والتابعين من تفسير القرآن : (فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على

(١) انظر : العقد الفريد صـ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) انظر : الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية صـ١٧٥ وما بعدها .

(٣) أخرجه أبو داود ٣ /٣٢٠ ، ح (٣٦٥٢)، والترمذي ١٩٩/٥ ، ح (٢٩٥٠- ٢٩٥٢)، والنسائي في الكبرى ٥/ ٣٠ ، ح (٨٠٨٤ - ٨٠٨٦)، وقد تكلم بعض أهل العلم في سند هذا الحديث وفي أحد رواته ، وهو سهيل بن أبي حزم [انظر : مجموع الفتاوى ٣٧٠/١٣ ، تفسير ابن كثير ٥/١] .

(٤) المحرر الوجيز ١ / ٢٩ .

تحرُّجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به . فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً ، فلا حَرَجَ عليه) [1].

وهكذا فإن التفسير بالرأي المنهي عنه هو ما كان عن غير علم، وليس له أصل من الكتاب والسنة، أو قوانين اللغة وأساليب العرب، ويكون ناتجاً إما عن الجهل أو التسرُّع إلي التفسير بما يقتضيه ظاهر اللغة، دون الاطلاع على كلام العلماء وآثار السلف، أو يكون ناتجاً عن الهوى والرغبة في الانتصار للرأي، حتى لو خالف ظاهر النصوص، مما هو دأب أصحاب البدع والفِرَق الضالة.

وعلم المناسبات أبعد ما يكون عن هذا الوصف ، فهو علم يستند أولاً إلي آثار صحيحة عن السلف تؤكد عنايتهم بترابط الآيات ، كما تبين في التتبع التاريخي السابق لهذا العلم . كما أنه يحظى ثانياً بعناية ثُلَّة كبيرة من العلماء ممن تم تتبع جهودهم فيما سبق .

هذا بالإضافة إلي أنه علم قائم على قواعد منضبطة كسائر العلوم أرساها هؤلاء العلماء أنفسهم ، سيأتي الحديث عنها لاحقاً .

الاعتراض الثاني :

الكلام في التناسب يفتح أبواب الشك، ويوسع دائرة الريب على من في قلبه مرض حين يعجز عن الوصول إلي وجه المناسبة بين بعض الآيات التي تغمض فيها وجوه الربط، ثم قد لا يجد عند المتكلمين بالتناسب ما يشفي غُلَّته منها، وقد لا يلاقي عندهم في بعض الآيات التي يدقّ فيها المسلك سوى التكلُّف، فيزداد مرضه .

وهذا اعتراض وجيه لو كان أصحاب هذا العلم من المفسرين قد ادَّعوا أن صحة هذا العلم مرتبطة بصحة اجتهاداتهم فيه ، وأنهم قد قالوا الكلمة الأخيرة فيه ، بحيث لم تبق زيادة لمستزيد ، من العلماء اللاحقين ، وهذا غير واقع .

وحتى لو افترضنا أن جميع العلماء قد عجزوا عن الوصول إلي وجه الربط في موضع من القرآن ، فإن هذا لا يعني عدم وجود الرابط ، فالعجز عن الوصول إلي الشيء لا يعني عدم وجوده ، وكما كان يقول علماؤنا : إن عدم الوِجْدان لا يستلزم عدم الوجود ، وعدم العلم لا يعني العلم بالعدم [2].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٣ / ٣٧٤ ، وانظر : تفسير ابن كثير ١ / ٦ .

(٢) انظر في هذا : الرد على المنطقيين ، لابن تيمية ١ / ١١٤ .

ولا يضر هذا العلم ألا يصل إلي الكلمة الفصل في تناسب جميع الآيات في القرآن، فهو كبقية العلوم يتدرج في الدقة والإحكام ، ويترقى على أيدي العلماء ، فإن القرآن كان وما زال محل التدبر، وحري بهذا العلم أن يزيد المتدبرين في القرآن هدى ، أما المتشكك فلا يصح أن يكون مقياساً للحكم على صلاح العلوم أو فسادها ، وإنما العلم أداة متى ما استخدمت في الخير ، وكان دافعها الإخلاص، آتت أكلها بإذن ربها .

الاعتراض الثالث :

البحث في تناسب آيات القرآن ليس من مهمات الدين ، ولا من علومه الضرورية، فهو من تضييع الأوقات في أمر لا يعود بنفع على فاعله أو قارئه .

ويكفي للإجابة عن هذا الاعتراض ما تقدم الاستشهاد به من نصوص العلماء التي تُبيِّن منزلته في الدين ، وأثره في إظهار إعجاز القرآن ، وفي فهم آياته ، بدءاً من أبي بكر النيسابوري الذي كان يُزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة، وانتهاءً بالبقاعي الذي أصَّل قواعده، وأظهر فوائده ، مروراً بنصوص الزمخشري، وابن العربي ، والرازي، وابن تيمية ، وأبي حيان ، والزركشي ، وغيرهم كثير.

الاعتراض الرابع :

أن القرآن نزل في بضع وعشرين سنة في أحكام مختلفة، شرعت لأسباب غير مؤتلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض، تماماً مثلما لا يمكن إيجاد التناسب بين جميع ما قاله أي بليغ طوال حياته، وعلى فرض إمكان وجود التناسب بين أسباب النزول المتباعدة، فإن الباحثين في التناسب لا يقيمون بحوثهم على ترتيب الآيات حسب النزول، بل بناءً على الترتيب الحالي للآيات في المصحف، الذي تم على أيدي الصحابة رضوان الله عليهم فأي معنى لطلب المناسبة بين هذه السور والآيات ما دام أنها لم ترتب حسب ترتيب النزول .

والجواب عن هذا الاعتراض يتلخص في أن علم التناسب ينظر إلي وجوه التناسب بين الآيات بحسب ترتيبها في المصحف ، وليس بحسب نزولها منجَّمة ، ذلك لأن الآيات كانت مرتبة في اللوح المحفوظ على نحو ترتيبها في المصحف ، ونزولها منجَّمة إنما كان حالة متوسطة بين الجمعين : جمع اللوح المحفوظ ، وجمع المصحف على أيدي الصحابة .

وهكذا فإذا كانت الآيات قد جُمِعت بعد تفريق، فقد كان تفريقها بعد جمع سابق في اللوح المحفوظ، وقد سبق نقل إجماع المسلمين على أن ترتيب الآيات على هذا النحو

في المصحف إنما كان بتوقيف من الله عز وجل، وهو التوقيف الذي أُريد منه أن يكون الجمع الثاني في المصحف موافقاً للجمع الأول في اللوح المحفوظ، وإذا كان القرآن قد نزل مفرقاً حسب الحوادث، فإنه قد أُنزل قبل ذلك جملة إلي السماء الدنيا في شهر رمضان المبارك، كما صرَّح بذلك قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (البقرة:١٨٥)، وقوله أيضاً : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر:١)، وقد روى الطبري عن ابن عباس قوله في تفسير هاتين الآيتين: (أُنزِل القرآن كله جملةً واحدة في ليلة القدر في رمضان، إلى السماء الدنيا، فكان الله إذا أراد أن يُحدِث في الأرض شيئًا أنزله منه، حتى جَمَعَه)[(١)].

والخلاصة أن هذا الترتيب الكائن في المصحف هو ترتيب أولي ومقصود ، وليس ناتجاً عن جمع اعتباطي للآيات كما قد يتوهم من يقرأ أن جمع القرآن تم على أيدي الصحابة ، دون أن يعلم أن هذا الجمع كان بتوقيف من رسول الله ﷺ الذي تلقى هذا الترتيب عن ربه جل وعلا في العرضة الأخيرة للقرآن قبيل وفاته ، وبهذا فإن علم التناسب إنما يعتمد على أساس راسخ متين حين يجعل منطلقه في تلمُّس المناسبات هذا الترتيب القائم في المصحف الشريف، وهذا هو ما يقرره الزركشي حين يقول : (قال بعض مشايخنا المحققين : قد وهِمَ من قال : لا يُطلب للآي الكريمة مناسبة ، لأنها على حسب الوقائع المتفرقة . وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً ، وعلى حسب الحِكْمة ترتيباً ، فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون ، مرتَّبة سُوَره كلها وآياته بالتوقيف . وحافظ القرآن العظيم لو استُفتي في أحكام متعددة ، أو ناظر فيها ، أو أملاها، لذكر آية كل حُكْم على ما سُئل ، وإذا رجع إلى التلاوة لم يتلُ كما أفتى ، ولا كما نزل مفرَّقاً ، بل كما أُنزِل جملة إلى بيت العِزَّة)[(٢)].

الاعتراض الخامس :

أنزل الله القرآن بلغة العرب ، وسلك فيه مسالكهم في الكلام، وقد عرف عن العرب في خطبهم وأشعارهم الاقتضاب والتنقل بين شتى الموضوعات دون رابط يوحد بينها ، أو مناسبة تجمعها .

---

(١) جامع البيان ٣ / ٤٤٧ ، ط / شاكر .

(٢) البرهان في علوم القرآن ١ / ٣٧ .

وفي الجواب عن هذا الاعتراض نسأل أولاً عن مدى صحة هذا الحكم الشمولى على لغة العرب وعلى خطبهم وأشعارهم ، فهل صحيح أنها كلها جارية على تلفيق الموضوعات دون رباط ؟ بل هل صحيح أن جميع خطبهم وقصائدهم ذات موضوعات متعددة ؟.

إن لدى العرب الكثير من الأحاديث والقصائد ذات الموضوع الواحد ، فلننظر أولاً إلي أحاديث الرسول ﷺ الذي أرسل بلسان قومه ، ولنتأمل في أحاديثه العديدة التي كانت برغم طولها تدور حول موضوع واحد ، كحديث الإسراء ، وحديث الغُلام ، وحديث أم زرع ، ولننظر كذلك في خُطب أصحابه ورسائلهم ، كخطبة أبي بكر الصديق يوم السقيفة ، ورسالة عمر بن الخطاب إلي أبي موسى الأشعري في القضاء ، وغيرها كثير . أما في أشعار العرب القديمة ، فهناك نماذج عديدة على القصائد ذات الموضوع الواحد ، مثل لامية السموأل : إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ...، ومرثيات الخنساء ، وغيرها أيضاً كثير .

صحيح أن هناك في المقابل نماذج أكثر عدداً للرسائل والخُطب والقصائد ذات الموضوعات المتعددة عند العرب ، ولكن تعدد الموضوعات في هذه النصوص لا يعني بالضرورة أنها غير متناسبة ، كما لا يعني كذلك أنها متناسبة ، وإنما الحكم يتعلق بطبيعة كل نص ، ومدى انسجام موضوعاته .

فبعض هذه النصوص – وهي الأقل – تتراكم فيها الموضوعات المتباعدة، وتتشتت فيها المعاني إلي حد التنافر ، بحيث يصعب إيجاد رابط كلي يُوحِّد بين موضوعاتها ومعانيها ، وبعض هذه النصوص – وهي الأكثر – تتعدد فيها الموضوعات ، وتتنوع ، ولكن شيئاً من التأمل فيها، وفي روابط معانيها يُحيل تعدُّدها توحُّداً، غير أن هذا التأمل إنما يعتمد على مدى فِقه القارئ بلغة العرب، وحذقه لأساليبهم في التعبير .

إن اعتداد العربي بذكائه جعله يفضل دائما الإيجاز في القول ، مما جعل كلامه أقرب إلي الإشارات منه إلي الحديث المسترسل ، وما لم يتنبه القارئ لهذه الفجوات المقصودة التي يتركها أثناء كلامه ، ويقدر المعاني الملائمة فيها ، فلن يتمكن من وصل المنفصل ، وتوحيد المتعدد .

وهذا الكلام لا يعني أن كل ما قاله العرب يجري دائماً على هذا النسق الرفيع، إذ لا شك في وجود العديد من النصوص التي يصعب فيها إيجاد الرابط بين موضوعاتها المفككة، وأفكارها المتنافرة ، ولكن الاعتراض على هذا الاعتراض إنما ينصبُّ على هذا التعميم في الحكم على كلام العرب بأنه جارٍ على الاقتضاب ، وهو التعميم الذي يُراد

منه أن يكون حُجَّة على نفي وجود التناسب بين المعاني في القرآن ، ما دام أن القرآن قد أُنزل بلسان العرب .

وقد تبين الآن أن لسان العرب أوسع بكثير من أن يُختزل بمثل هذا الوصف، كما أنه – ولله الحمد– أدق وأحكم مما يبدو للمتعجّل في النظر، والمتسرِّع في الحُكم.

وبعد، فقد بقيت بقية في الرد على هذه الاعتراضات جميعاً، وهي أقرب إلي المفارقة منها إلي أي شيء آخر، ذلك لأن أشد المعارضين لعلم المناسبة، وهو الشوكاني قد اعتمد في مواضع عديدة من تفسيره على مبدأ التناسب بين الآيات، والغريب أن نصَّه السابق الذي يعترض فيه على علم المناسبة قد جاء متوسطاً بين هذه المواضع التي يُطبق فيها مبدأ التناسب، يقول مثلاً عند قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (البقرة:٢٥): (لما ذكر تعالى جزاء الكافرين عقَّبه بجزاء المؤمنين، ليجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد)[1]. وهو بلا شك تباين واضح بين التنظير والتطبيق، لكن الدلالة الأهم التي يمكن استنتاجها من هذا التباين أن الشوكاني لم يستطع أن يُغمض عينيه عن الدلائل الواضحة على وجود التناسب في مواضع عديدة من القرآن، غير أن خفاء هذا التناسب في مواضع أُخرى جعله يتردد في اعتماد هذا المبدأ، ولاسيما عندما يقرأ ما كتبه المفسرون في تقدير وجه التناسب فيها، ويرى في كثير مما كتبوه ألواناً من التعسُّف، وهو الأمر الذي حدا به إلي رفض هذا العلم بالكلية على صعيد التنظير، مغلِّباً في هذا مبدأ سد الذرائع، ومجتهداً في تحرِّي الصواب، ليبتعد قدر ما يستطيع عن التكلُّف في التفسير.

ولعل صنيع الشوكاني هذا يصب في النهاية في مصلحة هذا العِلم ، إذ هو يُذكِّر الداعين لهذا العلم بضرورة اتخاذ الحذر من قبول جميع الاجتهادات التي تمتلئ بها كُتُب التفسير في مجال تناسب الآيات ، وأن يكون حاديهم دائماً مراعاة القواعد الكُلِّية التي وضعها العلماء لهذا العلم .

(١) فتح القدير ١ / ٥٤ ، وانظر منه أيضاً : ١ / ٥٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣ ، ٤١٤ .

المبحث الرابع:

القواعد الكلية لدراسة علم المناسبات بين السور والآيات

إن الوصول إلي المناسبة الصحيحة بين السور والآيات القرآنية الكريمة ، والوقوف على وجه الترابط بينها يحتاج إلي دراسة قواعد هذا العلم القرآني ، وقد اجتهد العلماء في استخراج قواعد تضبط البحث في هذا العلم ، وإليك ما ذكروه[(١)]:

القاعدة الأولي : تقدير التناسب يجب أن يكون قائماً على تأويل صحيح للآيات .

والتأويل الصحيح للآيات هو التأويل المعتمد على ما دلَّ عليه القرآن نفسه في الموضع ذاته، أو في مواضع أُخرى منه، ثم على ما صحَّ من التفسير المأثور عن الرسول ﷺ أو عن صحابته ، ثم على ما اتفق عليه أئمة التفسير من التابعين لهم بإحسان ، مستصحباً في فهم ذلك كله ما تعارف عليه العرب في لسانهم ، ومراعياً في ذلك كله دلالة السياق ، وهذه الشروط السابقة هي في الحقيقة الشروط اللازمة لتفسير القرآن عموماً ، والذي يمثِّل التناسب أحد مجالاته ، ويُعدّ الالتزام بها أحسن طُرق التفسير ، كما نصَّ على ذلك كبار المفسِّرين . يقول العز بن عبد السلام : (وأولى الأقوال ما دلَّ عليه الكتاب في موضع آخر، أو السُّنة ، أو إجماع الأمة ، أو سياق الكلام)[(٢)].

ويقول ابن تيمية : (فإن قال قائل : فما أحسن طرق التفسير ؟ فالجواب : أن أصح الطرق في ذلك أن يُفسَّر القرآن بالقرآن ، فما أُجمِل في مكان ، فإنه قد فُسِّر في موضع آخر ، وما اختُصر من مكان ، فقد بُسِط في موضع آخر . فإن أعياك ذلك ، فعليك بالسُّنة ، فإنها شارحة للقرآن ، وموضِّحة له ... وإذا لم نجد التفسير في القرآن، ولا في السُّنة ، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصُّوا بها ، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح ، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم ... وإذا لم تجد التفسير في القرآن ، ولا في السُّنة ، ولا وجدته عن الصحابة ، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين ... فإذا أجمعوا على الشيء فلا يُرتاب في كونه حُجَّة، فإن اختلفوا، فلا يكون قول بعضهم حُجَّة

---

(١) انظر: الوحدة السياقية للسورة صـ١٨٨ وما بعدها، والعقد الفريد، د/ إبراهيم الديب صـ٥٦ ، ٥٧ ، والبرهان للزركشي ١/ ٣٥، والإتقان للسيوطي ٢/ ١٠٨.

(٢) الإشارة إلي الإيجاز صـ٣٣٧ ، وانظر فيه أيضاً : ٢١ – ٢٣ .

على بعض، ولا على من بعدهم، ويُرجَع في ذلك إلى لغة القرآن ، أو السُّنة ، أو عموم لغة العرب ، أو أقوال الصحابة في ذلك) (١).

ومن هنا فإن من يتصدى للحديث عن وجوه التناسب بين الآيات ، لابد له أن يتزود من علوم عديدة تتصل اتصالاً وثيقاً بعلم التفسير، وهي كما ذكرها العلماء: علوم اللغة ، والنحو ، والتصريف ، والقراءات ، والبلاغة ، والتوحيد، والحديث والآثار ، والفقه ، وأصول الفقه (٢).

القاعدة الثانية : للتدبر والتأمل العميق أهمية عظمى في علم المناسبات .

بالرغم من أن التناسب بين الآيات في الغالب تناسب ظاهر لكل مَنْ يتدبر القرآن ، فإن وجه التناسب قد يغمض في بعض المواضع ، وقد يشتد خفاؤه في مواضع أخرى ، حتى يحتاج إلي مزيد من التدبر .

وفي هذا يقول الصفدي : (إن القرآن جميعه متعلق بعضه ببعض ،كالخروج من الوعظ والتذكير ، إلى الإنذار أو إلى البشارة ، أو إلى أمر أو نهي ، أو وعد أو وعيد ، إلا ما خفِيَ تعلُّقه في الظاهر ... وإلا متى تدبر الإنسان ذلك ، لم يجده مقطوعاً إلا فيما هو معلوم الاقتضاب) (٣).

ويبين الزركشي أن من التناسب ما هو جلي، وما هو خفي، فيقول: (ذِكر الآية بعد الأخرى، إما أن يظهر الارتباط بينهما لتعلق الكلام بعضه ببعض، وعدم تمامه بالأولى، فواضح، وكذلك إذا كانت الثانية للأُولى على جهة التأكيد والتفسير، أو الاعتراض والتشديد ، وهذا القسم لا كلام فيه . وإما ألا يظهر الارتباط، بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى ، وأنها خلاف النوع المبدوء به)(٤).

وسواء أكان التناسب جلياً، أم خفياً، فإن التدبر في آيات القرآن، والتأمل في معانيها، من المبادئ الأولية لهذا العلم القرآني، وإن انتساب هذا العلم إلي القرآن لا يعني فحسب أن موضوعه القرآن، بل يعني كذلك أن استمداده منه.

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٦٣/١٣ – ٣٧٠ ، وانظر : تفسير ابن كثير ٤/١ .

(٢) انظر : البحر المحيط لأبي حيان ١٠٥/١ – ١٠٩ ، والبرهان للزركشي ١٣/١ .

(٣) نصرة الثائر على المثل السائر صـ٣٦٢ ، وانظر : مفاتيح الغيب ١٧٧/٢٦.

(٤) البرهان في علوم القرآن ١ / ٤٠ .

ومن هنا فإذا كانت القاعدة السابقة قد قررت أهمية الاعتماد على النقل الصحيح في تفسير القرآن ، وضرورة التزود من العلوم المتصلة بهذا التفسير لفهم مناسبات القرآن، فإن هذه القاعدة تُضيف إليها أهمية التدبر الذاتي في فهم هذه المناسبات، وقد قال الله في موضعين من القرآن: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ (النساء:٨٢)، (محمد:٢٤).

القاعدة الثالثة : يعتمد علم التناسب اعتماداً جذرياً على علم المقاصد ، فلا يمكن الوصول إلي الوجه الصحيح في تناسب آيات أيِّ سورة ، دون إدراك مقصدها الكُلي أولاً .

وفي ذلك يقول البقاعي : (وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها ، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جُملها) [(١)].

وقد أعاد البقاعي التأكيد على هذه القاعدة مفصِّلاً مراده منها ، فيقول : (الأمر الكُلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القُرب والبعد من المطلوب ، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها ، فهذا هو الأمر الكُلِّي المهيمن على حُكم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، وإذا فعلته تبين لك –إن شاء الله– وجه النظم مفصَّلاً بين كل آية وآية ، في كل سورة سورة) [(٢)].

وبهذا فإن المعرفة الدقيقة لوجوه التناسب بين آيات السورة تبدأ أولاً بالوقوف على غرض السورة أو مقصدها الكُلِّي ، ثم تقدير ما يحتاج إليه هذا الغرض من مقدمات متنوعة تتفاوت فيما بينها في القُرب والبُعد منه ، ثم النظر كيف تتناهى هذه المقدمات ، وتبلغ المقصود، ثم كيف يتصاعد السياق مرة أخرى في مسار ارتدادي، لينتقل من المقصود إلي لوازمه التابعة له ، ليتسلسل الكلام من خلالها ، ويصل في النهاية إلي ما منه كان ابتداء [(٣)].

وفي هذا يقول البقاعي: (فإن كل سورة لها مقصد واحد يدار عليه أولها وآخرها، ويستدل عليه فيها ، فترتب المقدمات الدالة عليه على أتقن وجه وأبدع نهج، وإذا كان فيها شيء

(١) نظم الدرر ١/٥ ، وانظر : مصاعد النظر ١/١٤٢ ، ١٤٩ ، ٢٠٩ .
(٢) نظم الدرر ١/١١ .
(٣) انظر : الوحدة السياقية للسورة صـ١٩٠ .

يحتاج إلى دليل استدل عليه، وهكذا في دليل الدليل، وهلم جرا ، فإذا وصل الأمر إلى غايته ختم بما منه كان ابتدأ ، ثم انعطف الكلام إليه، وعاد النظر عليه ، على نهج آخر بديع ، ومرقى غير الأول منيع)(١).

القاعدة الرابعة : ينقسم التناسب بين الآيات إلي تناسب إجمالي ، وتناسب تفصيلي.

فالتناسب الإجمالي قائم على ربط المفاصل الأساسية للسورة بعضها ببعض ، وأهم هذه المفاصل هي : فاتحتها ، وخاتمتها ، وفُصُولها، والفصل : هو مجموعة متكاملة من الآيات المتعاقبة ذات الموضوع الواحد، فيُنظَر في تناسب فاتحة السورة وخاتمتها مع فُصُولها ومضمونها العام ، ثم تناسب فاتحة السورة مع خاتمتها، كما يُنظر في تناسب كل فصل من فصول السورة مع الفصل، أو الفصول المجاورة له ، في إطار المضمون العام للسورة . أما التناسب التفصيلي ، فيختص بتناسب الآية مع الآية السابقة ، أو اللاحقة لها في السياق .

والتناسب الإجمالي أهم دلالة من التناسب التفصيلي ، ذلك لأن البُعد الكُلي فيه يجعله أوثق ارتباطاً بمقصد السورة من التناسب التفصيلي .

قال البقاعي: (فتكون السورة كالشجرة النضيرة العالية، والدوحة البهيجة الأنيقة، المزينة بأنواع الزينة، المنظومة بعد أنيق الورق بأفنان الدر، وأفنانها منعطفة إلى تلك المقاطع كالدوائر، وكل دائرة منها لها شعبة متصلة بما قبلها، وشعبة ملتحمة بما بعدها، وآخر السورة قد واصل أولها، كما لاحم انتهاؤها ما بعدها، وعانق ابتداؤها ما قبلها، فصارت كل سورة دائرة كبرى، مشتملة على دوائر الآيات الغُرِّ)(٢). وقال السيوطي : (وقد قدّمنا غير مرة أن سور القرآن تستفتح بِما يشير إلى المقصود ، ثم يستطرد منه إلى غيرِه بأدنى ملائمة ، ثم يُعاد إلى تقرير المقصود بأوضح مما ذكر في المفتتح ، ثم يستطرد منه من شيء إلي شيء ، ثم يشار في آخر السورة إلي مثل ما افتتح به) (٣).

فقد رأى البقاعي والسيوطي أن استنباط مقصد السورة يتم من خلال التركيز على طرفي "الدائرة الكبرى" للسورة، وهما فاتحتها، وخاتمتها، وكذلك من خلال التركيز على "دوائرها الصُّغرى"، وهي فصول السورة، وهذا يعني أن رصد وجوه التناسب الإجمالي بين

---

(١) مصاعد النظر ١/١٤٩ ، وانظر : نظم الدرر ١/٥٤ .

(٢) مصاعد النظر ١ / ١٤٩ .

(٣) قطف الأزهار ٢ / ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ ، وانظر فيه أيضاً ١ /٢١٠ .

مفاصل السورة هو الذي يقود إلي معرفة مقصدها الكُلّي، وفي المقابل فإن وصولنا إلي هذا المقصد هو الذي يجعل رؤيتنا للتناسب الإجمالي للسورة، ثم للتناسب التفصيلي بين آياتها أوضح وأدق، وكأن التناسب الإجمالي للسورة هو بمثابة قنطرة تتوسط بين مقصدها، والتناسب التفصيلي بين آياتها.

وبناءً على هذا فإذا كانت القاعدة السابقة قد اشترطت أن يكون النظر إلي التناسب قائماً على إدراك المقصد الكُلي للسورة ، وألا يُصادم في أي وجه من وجوهه هذا المقصد، فإن هذه القاعدة تقودنا إلي القول بأن النظر إلي التناسب التفصيلي بين آيات السورة يجب أن يكون قائماً على إدراك التناسب الإجمالي للسورة، وألا يُصادم التناسب التفصيلي للآيات في أي وجه من وجوه هذا التناسب الإجمالي .

القاعدة الخامسة : لا يمكن الوصول إلي التقدير الصحيح لتناسب الآيات دون فهم فن الاستطراد القرآني .

والاستطراد فن يقوم على الانصراف البليغ من معنى أو غرض إلي معنى آخر عرضي أو عابر ، ثم الرجوع إلي الغرض الأساسي الأول .

وفي هذا المعنى يقول ابن أبي الحديد : (اعلم أن من أنواع علم البيان نوعاً يُسمى الاستطراد ، وقد يُسمى الالتفات ، وهو من جنس التخلُّص ، وشبيه به ، إلا أن الاستطراد هو : أن تخرج بعد أن تمهد ما تريد أن تمهده إلى الأمر الذي تروم ذِكره ، فتذكره ، وكأنك غير قاصد لذكره بالذات ، بل قد حصل ووقع ذِكره بالعرض عن غير قصد ، ثم تدعه وتتركه ، وتعود إلى الأمر الذي كنت في تمهيده ، كالمقبل عليه ، وكالملغى عما استطردت بذِكره ... ومن الفرق بينه وبين التخلص أنك في التخلص متى شرعت في ذِكر الممدوح أو المهجوّ تركت ما كنت فيه من قبل بالكُلِّية ، وأقبلت على ما تخلصت إليه من المديح والهجاء بيتاً بعد بيت ، حتى تنقضي القصيدة ، وفي الاستطراد تمر على ذكر الأمر الذي استطردت به مُروراً كالبرق الخاطف ، ثم تتركه وتنساه ، وتعود إلى ما كنت فيه، كأنك لم تقصد قصد ذاك ، وإنما عرض عُروضاً) [1].

ولا يمكن فهم طبيعة التناسب بين آيات السورة إلا باستيعاب قانون الاستطراد وهو طريقة القرآن في تناول موضوعاته .

(١) شرح نهج البلاغة ٧ / ٢٤١ – ٢٤٣ ، وانظر أيضاً: الكليات للكفوي صـ١١٠.

قال السيوطى : (وقد قدمنا غير مرة أن سور القرآن تستفتح بما يشير إلي المقصود، ثم يستطرد منه إلي غيره بأدنى ملاءمة . ثم يعاد إلي تقرير المقصود بأوضح مما ذكر في المفتتح ، ثم يستطرد منه من شيء إلي شيء ، ثم يشار في آخر السورة إلي مثل ما افتتح به)[١]. وقال أيضاً: (عادة القرآن الاستطراد من المقصود إلي غيره بأدنى ملاءمة ، ثم العود إلي المقصود) [٢].

وإذا كان فن الاستطراد القرآني هو القانون الكلي الذي لا يمكن فهم كيفية التناسب بين الآيات دون استيعابه ، فجدير بنا أن نبين الأسس التي يقوم عليها ، والضوابط التي تحكم الاستطراد بين موضوعات السورة [٣].

* أسس فن الاستطراد القرآني :

لقد ذكر العلماء في بحوثهم العديد من الأسس التي تُوجه فن الاستطراد القرآني ، وتكشف عن أسرار الربط بين الموضوعات داخل السورة ، وتشفُّ عن وجوه خفيَّة من التناسب بين فصول السورة وآياتها ، ويمكن تلخيص أهم هذه الأسس فيما يلي :

١) يعتمد الاستطراد القرآني في تنقُّله بين الموضوعات والمعاني على الروابط المنطقية المشتركة بينها ، كالانتقال من الشيء إلي نظيره ، أو مقابله ، أو لازمه. وكالانتقال من الخصوص إلي العموم ، ومن الإجمال إلي التفصيل ، أو العكس . وكالانتقال من الإفهام إلي الإفصاح ، ومن التلميح إلي التصريح ، ومن التضمين إلي التعيين .

أ) ففي الاستطراد من الشيء إلي نظيره يقول الزركشي : (إلحاق النظير بالنظير من دأب العقلاء ، ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ (الأنفال:٥)، عقب قوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (الأنفال:٤)، فإن الله سبحانه أمر رسوله أن يمضي لأمره في الغنائم على كُرْهٍ من أصحابه ، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العِير ، وهم كارهون)[٤].

(١) قطف الأزهار ٢ / ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ .

(٢) المصدر السابق ٢ / ٨٥٣ ، ٨٥٤ .

(٣) انظر : الوحدة السياقية للسورة صـ١٩٥ .

(٤) البرهان ١/ ٤٧ ، وانظر : الإتقان ٣/ ٣٢٤ ، ومعترك الأقران ١/ ٤٥ .

ب) أما الاستطراد من الشيء إلي مقابله ، فهو أسلوب مطرد وشائع جداً في النسق القرآني. وفي تقرير هذا يقول أبو حيان : (وقلما ذكر في القرآن آية في الوعيد ، إلا وذكرت آية في الوعد ، وفائدة ذلك : ظهور عدله تعالى ، واعتدال رجاء المؤمن وخوفه ، وكمال رحمته بوعده ، وحكمته بوعيده) [(١)].

ج) وفي الاستطراد من الشيء إلي لازمه يقول ابن القيم في حديثه عن الآية الثالثة عشرة والآيات التالية لها من سورة النجم : (ولما ذكر رؤيته لجبريل عند سدرة المنتهى، استطرد منها ، وذكر أن جنة المأوى عندها ، وأنه يغشاها من أمره وخلقه ما يغشى . وهذا من أحسن الاستطراد ، وهو أسلوب لطيف جداً في القرآن ، وهو نوعان : أحدهما : أن يستطرد من الشيء إلى لازمه ، مثل هذا ... ومثل قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى . قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى . قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى . قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى ﴾ (طه:٤٩-٥٢). فهذا جواب موسى، ثم استطرد سبحانه منه إلى قوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى . كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى . مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾) (طه:٥٣-٥٥)، ثم عاد إلى الكلام الذي استطرد منه.

د) وفي الاستطراد من الخصوص إلي العموم ، ومن الإجمال إلي التفصيل ، أو العكس . يقول البقاعي : (خطاب القرآن يبدأ بخصوص، فيختم بعموم ، ويبدأ بعموم ، فيثنيه تفصيل) [(٢)]. وعن الخطاب القرآني أيضاً يقول : (كل تفصيل يتقدمه بالرتبة مُجمل جامع) [(٣)].

هـ) وفي الاستطراد من الإفهام إلي الإفصاح، ومن التلميح إلي التصريح، ومن التضمين إلي التعيين. يقول البقاعي عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ. إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (البقرة:١٦٥-١٦٦): (أبدل من ﴿ إِذْ يَرَوْنَ ﴾ قوله : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ﴾ ... إظهاراً لإفصاح ما أفهمه مضمون الخطاب الأول ، لتتسق الآيات

---

(١) البحر المحيط ٤٤٦/١ ، وانظر : تفسير ابن كثير ٥٢/٤ ، ونظم الدرر ٤٣٨/٦ .

(٢) نظم الدرر ٢ / ٥١ .

(٣) المصدر السابق ٢ / ١٣ .

بعضها ببعض ، فتُظهر الآية ما في ضمن سابقتها ، وتجمع الآية ما في تفصيل لاحقتها) [1].

٢) مقاصد القرآن الكبرى وموضوعاته الأساسية يقترن ذِكر بعضها ببعض، ويُؤدي كل واحد منها إلي الآخر، فهي من القضايا المتلازمة دائماً في السياق القرآني. وأهم هذه المقاصد والموضوعات المتلازمة: إثبات التوحيد، وإثبات النبوة، وإثبات البعث والمعاد، وإثبات القضاء والقدر، وإظهار القُدرة في الخلق والحكمة في التدبير، وتبيين الأحكام، وسرد القصص وضرب الأمثال، والوعظ والترغيب والترهيب.

وقد تعاقب العلماء على تقرير الترابط المتين بين هذه المقاصد والموضوعات في السياق القرآني . وفي هذا يقول الرازي : (ترتيب هذا الكتاب الكريم وقع على أحسن الوجوه، وهو أنه يذكر شيئاً من الأحكام ، ثم يذكر عقيبه آيات كثيرة في الوعد ، والترغيب والترهيب ، ويخلط بها آيات دالة على كبرياء الله وجلال قدرته وعظمة إلهيته ، ثم يعود مرة أخرى إلى بيان الأحكام، وهذا أحسن أنواع الترتيب، وأقربها إلى التأثير في القلوب ، لأن التكليف بالأعمال الشاقة لا يقع في موقع القبول إلاّ إذا كان مقروناً بالوعد والوعيد، والوعد والوعيد لا يُؤثر في القلب إلا عند القطع بغاية كمال من صدر عنه الوعد والوعيد، فظهر أن هذا الترتيب أحسن الترتيبات اللائقة بالدعوة إلى الدين الحق) [2].

٣) أمور أخرى يقترن ذكر بعضها ببعض في النسق القرآني ، وتُعرف بالتدبر والاستقراء. وهذا باب واسع يتعذر حصره ، لاعتماده على التدبر ، وقد أورد العلماء عدة أمثلة عليه ، منها :

أ) اقتران دلائل الأنفس بدلائل الآفاق :

وفي سورة عبس خير شاهد على هذا الأمر، ففي السورة تجد الآيات تتوالى على هذا المنوال: ﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ . مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ . ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ . ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ . كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ (عبس:١٧-٢٣)، ففي هذه الآيات دلائل منتزعة من النفس وأطوارها في الحياة، وبعد الممات، غير أن الآيات تنعطف بعد ذلك، لتعرض دلائل الآفاق: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ . أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا .

(١) المصدر السابق ٣٠٢/١ ، وانظر فيه أيضاً ٤٥٩/٢ ، ٥٢٢ .

(٢) مفاتيح الغيب ٤٩/١١ ، وانظر : البحر المحيط ٢٥٨/٢ ، ونظم الدرر ٢٨١/٥ .

وَعِنَبًا وَقَضْبًا. وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ (عبس:٢٤-٣٢)، وهنا يقف الرازي ليقرر: (أنه كلما ذكر الدلائل الموجودة في الأنفس ، فإنه يذكر عقيبها الدلائل الموجودة في الآفاق)[١].

ب) العبور من الأمور الحِسّية إلي الأمور المعنوية :

ومن شواهده قوله تعالى : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ . وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل:٥-٨). ثم قال : ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (النحل:٩).

وهنا يقول ابن كثير : (لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يُسار عليه في السُّبُل الحسية ، نبه على الطُّرُق المعنوية الدينية ، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية ، كقوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ (البقرة:١٩٧)، وقال تعالى : ﴿ يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ (الأعراف:٢٦)) [٢].

ج) اقتران ذكر النبي موسى مع ذكر نبينا عليهما السلام، وذكر التوراة مع القرآن:

وفي هذا يقول ابن الزبير الثقفي: (وقلما تجد في الكتاب العزيز ورود تسليته عليه السلام إلا معقّبة بقصة موسى عليه السلام وما كابد من بني إسرائيل وفرعون)[٣].

ويقول ابن كثير عند الآية الثانية من سورة الإسراء: (لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد ﷺ ، عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه أيضاً ، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما من الله الصلاة والسلام ، وبين ذكر التوراة والقرآن، ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ (الإسراء:٢)، يعني التوراة)[٤].

---

(١) مفاتيح الغيب ٣١ / ٥٦ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/٥٤٤ .
(٣) البرهان في تناسب سور القرآن صـ١٣٨ ، وانظر : نظم الدرر ٥ / ٣٤٥ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/٢٤ .

د) ذكر القرآن بعد ذكر عرض الأعمال يوم القيامة :

ولعل من أبرز شواهده قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ . كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ . يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ (القيامة:٧-١٥)، ففي هذه الآيات حديث عن يوم القيامة، ثم قال الله تعالى بعد هذه الآيات مباشرة : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (القيامة:١٦-١٩)، ثم عادت الآيات بعد ذلك إلي الحديث عن الآخرة .

وهنا تساءل العلماء عن كيفية تناسب هذه الآيات التي تتضمن توجيه الرسول ﷺ في شأن تلقيه للقرآن ، مع الآيات السابقة لها واللاحقة التي تدور حول يوم القيامة، فإذا بالتدبر واستقراء الشواهد المماثلة يقودهم إلي الاستنتاج الذي يُصرح به السيوطي: (القرآن إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد ، حيث يُعرض يوم القيامة، أردفه بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية في الدنيا التي تنشأ عنها المحاسبة عملاً وتركاً، كما قال في سورة الكهف: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ (الكهف:٤٩)، إلى أن قال : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ (الكهف:٥٤) الآية، وقال في سُبحان: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ (الإسراء:٧١)، إلى أن قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ (الإسراء:٨٩) الآية، وقال في (طه:١٠٢): ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾، إلى أن قال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ (طه:١١٤))[1] .

هذه أهم الأسس التي توجه فن الاستطراد القرآني، وباكتمالها ينتهي الحديث عن القاعدة الخامسة، وبنهايتها يكتمل الحديث عن القواعد الكلية لعلم المناسبات.

---

(١) الإتقان ٣ / ٣٢٩ ، وانظر : معترك الأقران ١ / ٥٠ .

المبحث الخامس:
التناسب بين السور الإجمالي والتفصيلي.

احتفى كثير من المفسرين بذكر المناسبات بين السور ، كما احتفوا بذكرها بين الآيات كالآلوسي في تفسيره (روح المعاني) ، بل أفرد بعض الأئمة تناسب السور بالتأليف ، كأبي جعفر بن الزبير في كتابه (البرهان في تناسب سور القرآن) ، والبقاعي في تفسيره (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) ، والسيوطي في كتابه (تناسق الدرر في تناسب السور) ، وأبي الفضل الغماري الحسني في كتابه (جواهر البيان في تناسب سور القرآن) ، وبالتأمل فيما ذكره أهل العلم في تناسب سور القرآن يمكن تقسيم هذا المبحث إلي مطلبين :

المطلب الأول : التناسب الإجمالي بين السور .

ويمكن عرض كلام العلماء في التناسب الإجمالي بين السور في نقاط كالتالي:

١) تناسب فاتحة القرآن مع سياقه الكلي ، ومضمونه الإجمالي :

وفي هذه العلاقة يقول ابن الزبير : (قد ذكر الناس كيفية تضمنها مجملاً لما تفصَّل في الكتاب العزيز بجملته ، وهو أوضح وجه في تقدمها سوره المكرّمة) [١]. فسورة الفاتحة تعد تلخيصاً مركزاً لجميع سور القرآن الكريم ، أو كما يقول السيوطي : هي عنوان القرآن الدال عليه [٢].

٢) تناسب خاتمة القرآن مع مضمونه الإجمالي ، وسياقه الكلي :

كل القرآن في بيان التوحيد والطاعات، ومدح أهلها، وذكر الوعد عليها، وفي بيان الكفر والمعاصي، وذكر أهلها، وذكر الوعيد عليها، وسورة الإخلاص في تصحيح التوحيد، والمعوذتان في الاستعاذة عمَّن قصد إذلالك ولإزالتك عن التوحيد [٣].

٣) تناسب فاتحة القرآن مع خاتمته :

القرآن الكريم متصل أوله بآخره، وآخره بأوله ، فهو (دَوريٌّ) ، فليس هناك وقف تام في كتاب الله ولا على آخر سورة الناس ، بل هي متصلة بالفاتحة التي هي أول القرآن ، كاتصالها بما قبلها ، بل أشد[٤].

وفي مناسبة فاتحة القرآن مع خاتمته يقول ابن تيمية : (ختم المصحف بحقيقة الإيمان ، وهو ذكر الله ودعاؤه ، كما بنيت عليه أم القرآن، فإن حقيقة الإنسان المعنوية هو المنطق ، والمنطق قسمان : خبر وإنشاء ، وأفضل الخبر وأنفعه وأوجبه ما كان خبراً عن الله ، كنصف الفاتحة ، وسورة الإخلاص ، وأفضل الإنشاء الذي هو الطلب ، وأنفعه وأوجبه ما كان طلباً من الله ، كالنصف الثاني من الفاتحة والمعوذتين [٥].

أما البقاعي فقد نظر في تقدير هذه المناسبة إلي السور الثلاث الأول من القرآن المقابلة للسور الثلاث الأخيرة منه .

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن صـ٧٧ .

(٢) انظر : تناسق الدرر صـ٦١ ، الحاوي للفتاوى ١ / ٤٥٩ .

(٣) انظر : البرهان في تناسب سور القرآن صـ٢٤٧ ، التسهيل لابن جزي ٤ /٤٥٥ .

(٤) انظر : نظم الدرر للبقاعي ١ / ٩ .

(٥) مجموع الفتاوى ١٦ / ٤٧٩ .

وفي هذا يقول : (لما قرب التقاء نهايتي الدائرة السورية : آخرها بأولها ، اشتد تشاكل الرأسين ، فكانت هذه السور الثلاث الأخيرة ، مشاكلة للثلاث الأولى في المقاصد ، وكثرة الفضائل : الإخلاص لسورة التوحيد : آل عمران ، وهو واضح ، والفلق للبقرة طباقاً ووفاقاً .. وفي البقرة : ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ، ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ الآيات ، ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ (البقرة:٦٧) الآية ، والناس للفاتحة ، فصار ذلك بمنزلة تقديس النفس بالتوحيد والإخلاص ، ثم استعاذة من كل شر ظاهر، وكل سوء باطن، للتأهل لتلاوة سورة المراقبة (الفاتحة) وما بعدها من الكتاب ، على غاية من السداد والصواب ، فاتصل الآخر بالأول أي اتصال بلا ارتياب ، واتحد به كل الاتحاد) [١].

٤) تناسب أقسام القرآن الكبرى :

استنباط التناسب الإجمالي لأقسام القرآن الكبرى من خلال تأمل مواقع السور المتفقة في فاتحتها هو أسلوب شائع عند علماء التفسير .

ومن ذلك قول السيوطي عند سورة الأنعام : (كل ربع من القرآن افتتح بسورة أولها الحمد، وهذه للربع الثاني، والكهف للربع الثالث، وسبأ وفاطر للربع الرابع) [٢].

ويلحظ الرازي التناسب بين نصفي القرآن ، فيقول في بداية تفسيره لسورة النساء: (جعل هذا المطلع مطلعاً لسورتين في القرآن :

إحداهما : هذه السورة ، وهي السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن .

والثانية : سورة الحج ، وهي أيضاً السورة الرابعة من النصف الثاني من القرآن .

ثم إنه تعالى علل الأمر بالتقوى في هذه السورة بما يدل على معرفة المبدأ ، وهو أنه تعالى خلق الخلق من نفس واحدة ، وهذا يدل على كمال قدرة الخالق وكمال علمه ، وكمال حكمته وجلاله ، وعلل الأمر بالتقوى في سورة الحج بما يدل على كمال معرفة المعاد، وهو قوله : ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحج:١)، فجعل صدر هاتين

(١) مصاعد النظر ٣ / ٣١٦ ، وانظر : نظم الدرر ٨ / ٦٠٣ ، ٦١١ ، ٦١٧ .

(٢) تناسق الدرر صـ٨٦ ، وانظر : مفاتيح الغيب ٢٥ / ٢٠٦ .

السورتين دلالة على معرفة المبدأ ، ومعرفة المعاد ، ثم قدم السورة الدالة على المبدأ على السورة الدالة على المعاد) [1].

وتحدث البقاعي عن التناسب بين قسمي القرآن المطول : الذي يشتمل على السبع الطول، والمئين ، والمثاني ، والمفصل : وهو قصار السور التالية للمثاني ، فقال في آخر سورة الفتح مبيناً كيفية تناسب هذين القسمين : (هذا آخر القسم الأول من القرآن ، وهو المطول، وقد ختم –كما ترى – بسورتين [2]**، هما في الحقيقة للنبي ﷺ ، وحاصلهما الفتح له بالسيف، والنصر على من قاتله ظاهراً، كما ختم الثاني (المفصَّل) بسورتين** [3] **هما نصرة له ﷺ بالحال على من قصده بالضر باطناً)**[4].

٥) تناسب السور غير المتجاورة المتشابهة في بعض خصائصها :

ومن هذه السور سورتي (ص ، ق) ، وفي تناسبهما يقول الرازي: (سورة (ق) وسورة (ص) تشتركان في افتتاح أولهما بالحرف المعجم، والقسم بالقرآن، وقوله (بل)، والتعجب، ويشتركان في شيء آخر وهو أن أول السورتين وآخرهما متناسبان، وذلك لأن في أول (ص): ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾، وفي آخرها: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾، وفي أول (ق): ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾، وفي آخرها: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾، فافتتح بما اختتم به، والثالث: وهو أن في تلك السورة صرف العناية إلى تقرير الأصل الأول، وهو التوحيد بقوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ وقوله تعالى: ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ (ص:٥-٦)، وفي هذه السورة إلى تقرير الأصل الآخر وهو الحشر، بقوله تعالى: ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ (ق:٣)، ولما كان افتتاح السورة في (ص) في تقرير المبدأ قال في آخرها: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ (ص:٧١)، وختمه بحكاية بدء الخلق، لأنه دليل الوحدانية، ولما كان افتتاح

---

(١) مفاتيح الغيب ٩ / ١٢٩ ، وانظر : البرهان للزركشي ٤ / ٥٣ .

(٢) يقصد سورتي محمد والفتح ، وهذا يعني أنه يرى المفصل يبدأ بسورة الحجرات ، وهو أحد الأقوال فيه .

(٣) يقصد سورتي الفلق والناس .

(٤) نظم الدرر ٧ / ٢١٩ ، وانظر : تفسير الخطيب الشربيني ٤ / ٥٩ .

هذه لبيان الحشر، قال في آخرها: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ (ق:٤٤)[١].

ويشير ابن تيمية إلي تناسب سورتي الكافرون والإخلاص واشتراكهما في تقرير التوحيد، مع اختصاص (الكافرون) بالتوحيد العملي، واختصاص (الإخلاص) بالتوحيد القولي[٢].

إلى هنا ينتهي الحديث عن وجوه التناسب الإجمالي بين السور ، وننتقل إلي التناسب التفصيلي في المطلب التالي .

(١) مفاتيح الغيب ٢٨ / ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ١٠ / ٥٤ ، ١٩ / ١٧١ .

المطلب الثاني : التناسب التفصيلي بين السور .

والمقصود به تناسب السور المتجاورة ، وهو قسمان :

الأول : تناسب عدة سور متجاورة ، بناءً على أساس واحد .

الثاني : تناسب كل سورة مع السورة المجاورة لها ، سباقاً أو لحاقاً .

أما عن القسم الأول : تناسب عدة سور متجاورة ، بناءً على أساس واحد :

فالتناسب بين عدة سور متجاورة قد يكون تناسباً عاماً بينها جميعاً، دون تمييز لسورة محددة من بين هذه السور ، وقد يكون تناسباً بين سورة معينة من جهة، وعدة سور تالية لها ، ومرتبطة جميعها بها من جهة أخرى ، بحيث تصبح سورة معينة ، وكأنها مقدمة جامعة لعدة سور تالية لها ، وهذا ما أشار إليه البقاعي بقوله: (تترجم السورة عدة سور)[1]. ومن ذلك قول الرازي عن سورة الكوثر: (هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور، وكالأصل لما بعدها من السور)[2].

ويقول الكرماني عن سور آل حم السبع : (سميت هذه السور السبع (حم) على الاشتراك في الاسم، لما بينهن من التشاكل الذي اختصت به، وهو أن كل واحدة استفتحت بالكتاب ، أو صفة الكتاب ، مع تقارب المقادير في الطول والقصر ، وتشاكل الكلام في النظام)[3].

ويضيف ابن عطية : (أنها خلت من الأحكام ، وقصرت على المواعظ والزجر، وطرق الآخرة محضاً ، وأيضاً فهي قصار)[4].

ويقول الرازي في تناسب سور الإسراء والكهف ومريم : (هذه السور الثلاث المتعاقبة ، اشتمل كل واحد منها على حصول حالة عجيبة نادرة في هذا العالم، فسورة بني إسرائيل اشتملت على الإسراء بجسد محمد ﷺ من مكة إلى الشام وهو حالة عجيبة، وهذه السورة اشتملت على بقاء القوم في النوم مدة ثلاثمائة سنة وأزيد، وهو أيضاً حالة عجيبة، وسورة مريم اشتملت على حدوث الولد لا من الأب ، وهو أيضاً حالة عجيبة)[5].

---

(١) نظم الدرر ١ / ٥٤ .

(٢) مفاتيح الغيب ٣٢ / ١١١ .

(٣) غرائب التفسير ٢ / ١٠٣٧ .

(٤) المحرر الوجيز ١٣ / ٢ ، وانظر : تناسق الدرر للسيوطي صـ١١٥ .

(٥) مفاتيح الغيب ٢١ / ٩٧ ، وانظر : اللباب لابن عادل ١٢ / ٤٦٧ .

ويقول ابن تيمية عن تناسب السور القصار: (السور القصار في أواخر المصحف متناسبة، فسورة (اقرأ) هي أول ما نزل من القرآن؛ ولهذا افتتحت بالأمر بالقراءة، فلما أمر في هذه السورة بالقراءة ذكر في التي تليها نزول القرآن ليلة القدر، ثم في التي تليها تلاوته على المنذرين، حيث قال: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً ، فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ (البينة:٢، ٣)، فهذه السور الثلاث منتظمة للقرآن، أمراً به، وذكراً لنزوله، ولتلاوة الرسول له على المنذرين، ثم سورة الزلزلة، والعاديات، والقارعة، والتكاثر متضمنة لذكر اليوم الآخر، وما فيه من الثواب والعقاب، ثم سورة العصر، والهمزة، والفيل ، ولإيلاف، وأرأيت، والكوثر، والكافرون، والنصر، وتبت، متضمنة لذكر الأعمال: حسنها، وسيئها، وإن كان لكل سورة خاصة، وأما سورة الإخلاص والمعوذتان، ففي الإخلاص: الثناء على الله، وفي المعوذتين: دعاء العبد ربه ليعيذه، والثناء مقرون بالدعاء)(١).

غير أن البقاعي يظل أشهر العلماء الذين تحدثوا عن تناسب عدة سور متتالية بناءً على أساس واحد ، حتى إنه كان يربط مقصد السورة بمقاصد عدة سور سابقة لها، أو لاحقة ، ضمن ذلك قوله عن سورة (النساء) : (مقصودها الاجتماع على التوحيد الذي هدت إليه سورة (آل عمران) ، والكتاب الذي حدت إليه سورة (البقرة)، لأجل الدين الذي جمعته (الفاتحة))(٢).

<u>القسم الثاني</u> : تناسب كل سورة مع السورة المجاورة لها ، سباقاً أو لحاقاً .

قال الزركشي : (لترتيب وضع السور في المصحف أسباب تطلع على أنه توقيفي صادر عن حكيم .

<u>أحدها</u> : بحسب الحروف كما في الحواميم .

<u>وثانيها</u> : لموافقة أول السورة لآخر ما قبلها ، كآخر الحمد في المعنى ، وأول البقرة .

<u>وثالثها</u> : للوزن في اللفظ ، كآخر (تبت) وأول الإخلاص .

<u>ورابعها</u> : لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى، مثل "والضحى" و" ألم نشرح")(٣).

عند تأمل هذا النص يمكن استخراج ثلاثة أسس من أسس استخراج وجه التناسب بين السورتين ، وهي كما يلي :

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ١٦ / ٤٧٧ ، ٤٧٨ .

(٢) مصاعد النظر ٢ / ٨٨ ، وانظر : نظم الدرر ٨ / ٢٠١ .

(٣) البرهان ١ / ٢٦٠ ، وانظر : الإتقان ٣ / ٣٣٢ ، ومعترك الأقران ١ / ٥٣ .

١) مناسبة فاتحة السورة لفاتحة السورة المجاورة لها .

٢) مناسبة فاتحة السورة لخاتمة السورة السابقة لها ، في اللفظ أو في المعنى ، أو فيهما معاً .

٣) مناسبة مضمون السورة لمضمون السورة المجاورة لها .

ويضاف إلي هذه الأسس المذكورة في نص الزركشي أسسا أخرى ، وهى :

٤) مناسبة فاتحة السورة لمضمون السورة السابقة عليها .

٥) مناسبة مضمون السورة لخاتمة السورة السابقة لها .

٦) مناسبة مضمون السورة لفاتحة السورة السابقة لها .

٧) مناسبة موضع معين من السورة لموضع معين من السورة السابقة له .

٨) مناسبة خاتمة السورة لفاتحة السورة السابقة لها .

٩) تناسب السورتين في فاتحتيهما وخاتمتيهما معاً .

وفيما يلي عرض لكل نوع على حدة بما يناسبه من إيضاح :

١) مناسبة فاتحة السورة لفاتحة السورة السابقة لها :

ومن شواهد هذا الأساس قول ابن الزبير في تناسب سورتي "المزمل والمدثر": ملاءمتها لسورة المزمل واضحة، فاستفتاح السورتين من نمط واحد، وما ابتدئت به كل واحدة منهما من جليل خطابه عليه السلام وعظيم تكريمه)[١].

ومن شواهده أيضاً مناسبة سورة الكهف مع سورة الإسراء ، فسورة الإسراء افتتحت بتسبيحه تعالى على معجزة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ...﴾ الآية (الإسراء:١)، وسورة الكهف افتتحت بحمده تعالى على معجزة القرآن الكريم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ (الكهف:١)، وبين التسبيح والتحميد تلازم، ففي التسبيح نفي للنقص عنه تعالى، وفي الحمد إثبات الكمال له عز وجل، ولذا قرن في القرآن الكريم بينهما في أكثر من آية : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (غافر:٥٥)، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (الحجر:٩٨)، وأيضاً فمطلع السورتين في الحديث عن معجزة لرسول الله ﷺ، وفيهما أيضاً وصف لرسول الله بالعبودية ، فقد بلغ ﷺ في العبودية درجة الكمال حتى صارت العبودية علماً عليه بالغلبة .

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن صـ٢١٦ .

ومن شواهده أيضاً سورة المؤمنون مع سورة الحج ، ففي صدر كلتا السورتين حديث عن مراحل خلق الإنسان ، وبيان نعم الله عليه ، ثم موته، وبعثه، والبرهنة على قدرة الله على البعث : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ... ﴾ (الحج:٥) الآية، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ... ﴾ (المؤمنون:١٢-١٤) الآية.

٢) مناسبة فاتحة السورة لخاتمة السورة السابقة لها :

ومن ذلك قول الطبرسي في تناسب سورتي المطففين والانشقاق : (ختم الله سبحانه تلك السورة بذكر أحوال القيامة ، وافتتح هذه السورة بمثل ذلك، فاتصلت بها اتصال النظير بالنظير)[1].

وقال الزركشي: (افتتاح البقرة بقوله: ﴿الم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (البقرة:١-٢). إشارة إلى ﴿ الصِّرَاطَ ﴾ في قوله : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة:٦). كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو الكتاب)[2].

ومن شواهده أيضاً سورة الأنفال مع سورة الأعراف ، فقد ختم تعالى الأخيرة بالأمر بالاستماع والإنصات إلي قراءة القرآن ، طلباً للرحمة والمغفرة ، وبالأمر بذكره تعالى في كل حالات المرء : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .... ﴾ الآية (الأعراف:٢٠٤-٢٠٦)، وافتتح الأولى بالأمر بتقواه ، وبيان ما يحدثه ذكر الله في كل الحالات ، وقراءة القرآن من آثار حميدة : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ .... ﴾ (الأنفال:١-٣).

ومن شواهده سورة الحج مع الأنبياء، حيث ختمت الأخيرة بالحديث عن البعث ومصير فريقي المؤمنين والكافرين : ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ... ﴾ (الأنبياء:٩٧). وصدرت الأولى بنداء الناس كافة وأمرهم بتقوى الله، والاستعداد ليوم الأهوال : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ... ﴾ (الحج:١-٢).

ومن أمثلته أيضاً سورة "الصافات" مع "يس"، حيث ختمت الأخيرة باستبعاد الكافر للبعث، وضربه المثل لإنكاره، ورد القرآن على ذلك المنكر: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ

---

(١) مجمع البيان ٣ / ٧٥ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ١ / ٣٨ .

مِنْ نُطْفَةٍ ...﴾ (يس:٧٧)، وصدرت الأولى ببيان وحدانيته تعالى وسعة علمه وقدرته، وبإثبات البعث، وجزاء الكافرين والمؤمنين، وغير ذلك.

٣) مناسبة مضمون السورة لمضمون السورة المجاورة لها .

ومن شواهده قوا أبي حيان في تناسب سورتي "الإنسان" و"المرسلات" : (لما كان في سورة "الإنسان" ذكر نزراً من أحوال الكفار في الآخرة ، وأطنب في وصف أحوال المؤمنين فيها ، جاء في هذه السورة الإطناب في وصف الكفار ، والإيجاز في وصف المؤمنين ، فوقع بذلك الاعتدال بين السورتين) (١).

وقول ابن الزبير في تناسب سورتي الضحى والشرح : (معنى هذه السورة من معنى السورة قبلها ، وحاصل السورتين تعداد نعمه سبحانه عليه ﷺ) (٢).

٤) مناسبة فاتحة السورة لمضمون السورة السابقة لها :

ومن شواهده قول الطبرسي في تناسب سورتي التكوير والانفطار : (لما كانت السورة المتقدمة في ذكر أهوال يوم القيامة ، افتتح سبحانه هذه السورة بمثل ذلك ، ليتصل بها اتصال النظير بالنظير) (٣).

ومن أمثلته أيضاً سورة "قريش" مع "الفيل"، فقد افتتحت الأولى باللام، والجار والمجرور متعلق بفعل مفهوم من مضمون سورة الفيل على بعض الآراء ، فالله تعالى فعل بأصحاب الفيل ما فعل لإيلاف قريش في رحلتيهم، ولظهور الاتصال بين السورتين .

قال الأخفش : اتصالها بها من باب قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ (القصص:٨). أي كانت عاقبة إهلاك أصحاب الفيل إيلاف قريش ، كما أن عاقبة التقاط آل فرعون لموسى عليه السلام صيرورته عدواً لهم وحزنا، فاللام الجارة للعاقبة . ولقوة التلاحم بين السورتين كانتا في مصحف أبي بن كعب سورة واحدة كما قال السيوطى (٤)، ومثل أبي بن كعب لا يجهل أنهما سورتان مستقلتان ، ولعلهما وجدتا في مصحفه الخاص به كذلك – إن صحت الرواية التي اعتمد عليها – لإبرازه قوة

(١) البحر المحيط ٨ / ٣٩٩ .

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن صـ٢٣٢ .

(٣) مجمع البيان ٣ / ٥٥ .

(٤) الإتقان ٢ / ١٠٩ ، البرهان للزركشي ١ / ٣٨ .

الاتصال بين السورتين ، وإظهار إحكام التناسب بينهما ، أو أن الكلام من باب التشبيه أي كانتا في مصحفه كالسورة الواحدة(١).

٥) مناسبة مضمون السورة لخاتمة السورة السابقة لها :

ومن شواهده قول ابن الزبير في تناسب سورتي يوسف والرعد : (هذه السورة تفصيل لمجمل قوله سبحانه في خاتمة سورة يوسف عليه السلام : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ . وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ . أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف:١٠٥-١٠٨) (٢).

٦) مناسبة مضمون السورة لفاتحة السورة السابقة لها :

ومن ذلك قول السيوطي في تناسب سورتي المؤمنون والنور : (وجه اتصالها بسورة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ أنه لما قال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ (المؤمنون:٥)، ذكر في هذه أحكام من لم يحفظ فرجه من الزانية والزاني ، وما اتصل بذلك من شأن القذف ، وقصة الإفك ، والأمر بغض البصر، وأمر فيها بالنكاح، حفظًا للفروج، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف ، وحفظ فرجه ، ونهى عن إكراه الفتيات على الزنا ، ولا ارتباط أحسن من هذا الارتباط ، ولا تناسق أبدع من هذا النسق) (٣).

٧) مناسبة موضع معين (آية ، أو عدة آيات ، أو فصل) من السورة لموضع معين (آية، أو عدة آيات ، أو فصل) من السورة السابقة لها :

ومن شواهده قول السيوطي عند قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ (الأنفال:٥٨): (هذه الآية أشد شيء اعتلاقاً بقوله : ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (التوبة:١)، وهذا يحقق ما قلته لك أن السورة تكون شارحة لقصة أجملت في سورة قبلها ، فإن صدر براءة كله تفصيل لهذه الآية)(٤).

٨) مناسبة خاتمة السورة لفاتحة السورة السابقة لها :

---

(١) انظر : العقد الفريد ، د / إبراهيم الديب صـ٧٨ .

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن صـ١١٥ .

(٣) تناسق الدرر صـ١٠٤ ، وانظر : البرهان لابن الزبير صـ١٣٥ .

(٤) قطف الأزهار ٢ / ١١١٩ .

يقول السيوطي : (إذا وردت سورتان بينهما تلازم واتحاد ، فإن السورة الثانية تكون خاتمتها مناسبة لفاتحة الأولى ، للدلالة على الاتحاد)[(١)].

ويورد شاهداً على هذا النوع من التناسب بين السورتين فيقول : (وآخر (آل عمران) مناسب لأول (البقرة)، فإنها افتتحت بذكر المتقين، وأنهم المفلحون، وختمت (آل عمران) بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:٢٠٠)، وافتتحت البقرة بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ (البقرة:٤)، وختمت آل عمران بقوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ (آل عمران:١٩٩)[(٢)].

٩) تناسب السورتين في فاتحتيهما وخاتمتيهما معاً :

ومن شواهده تناسب سورتي الفرقان والشعراء ، ففي أول الفرقان التصدير بالإنذار في قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان:١)، وفي آخرها ذلك في قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ (الفرقان:٧٧)، وفي أول الشعراء: ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (الشعراء:٦)، وفي آخرها الأمر بالإنذار في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء:٢١٤).

ومن شواهده أيضاً سورة البقرة مع آل عمران، فقد افتتحت الأولى بالثناء على المتقين الذين آمنوا بجميع ما أنزل الله على رسوله ﷺ وجميع ما أنزله الله على الرسل السابقين، ثم أتبع ذلك ذم الكافرين والمنافقين ، واختتمت بمدح المتقين المؤمنين بالله وملائكته ورسله ، والذين لا تفتر ألسنتهم عن دعاء ربهم بالمغفرة والرحمة والنصر على الكافرين ، فتعانق مقطعها بمطلعها ، وتناسق آخرها مع أولها.

وكذلك سورة آل عمران افتتحت بالثناء على المؤمنين ودعائهم ربهم بقولهم : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (آل عمران:٧)، وتحقير الكافرين وتهديدهم وبيان سوء عاقبتهم ، واختتمت السورة بمدح المؤمنين ودعائهم لربهم، وبإخزاء الكافرين وبيان سوء مصيرهم ، فتعانق آخرها مع أولها .

هذا فضلاً عن أن السورتين استهلتا بأحرف مقطعة ، وبالحديث عن القرآن الكريم ، مع تسمية رسول الله ﷺ لهما بالزهراوين .

---

(١) تناسق الدرر صـ٧٤ .

(٢) المصدر السابق .

هذا على وجه الإجمال أهم أنواع التناسب التفصيلي بين السورتين المتجاورتين، ولعله قد تبين من خلالها مدى الترابط المتين بين سور القرآن الكريم ، وهو الترابط الذي جعل العلماء يصلون إلي حد قياس تناسب السور على تناسب آيات السورة الواحدة (١). بل يصل الزركشي إلي حد قياس تناسب السورتين على تناسب الجمل ضمن آية واحدة من آيات القرآن (٢). وقد يجتمع بين السورتين أكثر من وجه للمناسبة بينهما ، فذكر مناسبة لا يمنع من ذكر مناسبة أخرى ، بل إن تعدد أوجه المناسبة يزيد من ظهور قوة التلاحم ، وشدة الارتباط بين سور القرآن الكريم .

(١) انظر في ذلك : مجموع الفتاوى ١٦ / ٤٧٨ .

(٢) انظر : البرهان في علوم القرآن ١ / ٣٨ ، وتناسق الدرر صـ٨٣ ، ١١٣ .

المبحث السادس:
التناسب بين الآيات الإجمالي والتفصيلي

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : التناسب الإجمالي بين الآيات .

تناول العلماء في هذا النوع تناسب كل من فاتحة السورة وخاتمتها مع مضمونها ، ثم تناسب فاتحة السورة مع خاتمتها ، ثم تناسب كل من الفاتحة والخاتمة مع فصول السورة ، وأخيراً تناسب كل فصل من فصول السورة مع الفصل ، أو الفصول المجاورة له ، في إطار المعنى العام للسورة ، ويمكن عرض هذه الأنواع فيما يلي:

أ) تناسب فاتحة السورة مع مضمونها:

لقد ذكر العلماء في بحوثهم وجوهاً عديدة من هذه العلاقات ، فقد تتضمن الفاتحة التصريح بالمقصد الكُلى للسورة .

وفي هذا يقول السيوطي عند فاتحة سورة "التوبة": (انظر إلى هذا المطلع الذي تكاد براعته تسحر القلوب، وتبهر العقول، أما أولاً فلمناسبته لمقاصد السورة، فإنها سيقت لنبذ العهود، وقتل الكفار حيث وجدوا، وطردهم من جزيرة العرب، وكشف أسرار المنافقين ، وما إلي ذلك ، فلا يكن مطلع لذلك أنسب، ولا أبلغ من هذا المطلع المفتتح بالبراءة)[١].

وقد تُشير الفاتحة إلي الأصل الذي يرجع إليه جميع ما تتضمنه السورة من موضوعات، أو معانٍ، أو فُرُوض، وفي هذا يقول الرازي في فاتحة سورة النساء : (اعلم أن هذه السورة مشتملة على أنواع كثيرة من التكاليف ... ولما كانت هذه التكاليف شاقة على النفوس، لثقلها على الطباع ، لا جَرَمَ افتتح السورة بالعِلة التي لأجلها يجب حمل هذه التكاليف الشاقة، وهي تقْوى الرب الذي خلقنا، والإله الذي أوجدنا)[٢].

---

(١) قطف الأزهار ٢ / ١١٢٩ ، وانظر : جامع البيان ٦ / ١٥٠ ، ط / شاكر .

(٢) مفاتيح الغيب ٩/ ١٢٨، وانظر: تفسير القرطبي ١٧/ ١٥٩، نظم الدرر ٢/ ٣٨٧.

وقد تتضمن الفاتحة الإيماء إلي مقصد السورة عبر القَسَم الذي يتصدرها ، وفي هذا يقول البقاعي في فاتحة سورة "الصافات" : (مقصود السورة التنزيه الذي هو الإبعاد عن النقائص، ولذلك كان أنسب الأشياء الإقسام أولها بالملائكة الذين هم أنزه الخلق)(١).

وقد تجمِل الفاتحة ما تُفصِّله السورة بأجمعها بعد ذلك ، وفي هذا يقول البقاعي عند قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران:٦): (لما كان كل تفصيل يتقدمه بالرُّتبة مُجمَل جامع ، وكانت تراجم السورة موضع الإجمال ، ليكون تفصيلها موضع التفاصيل ... كان في هذه الآية الجامعة توطئة لبيان الأمر في شأنه – أي عيسى – عليه السلام ، من حيث إنه مما صُوِّر في الرَّحِم ، وحملته الأنثى، ووضعته، وأن جميع ما حوته السماء والأرض لا ينبغي أن يقع فيه لبس في أمر الإلهية) (٢).

* العلاقة بين البسملة ومضمون السورة :

وفي إطار العلاقة بين فاتحة السورة ومضمونها توقف جمع من العلماء عند البسملة التي تتصدر سور القرآن، فرأوا أن تكرار ورودها في بداية كل سورة لا يعني أن تتوحد دلالاتها في كل موضع، فتكرارها اللفظي لا يعني بالضرورة تكرارها المعنوي، صحيح أن للبسملة دلالات لُغَوية وشرعية ثابتة لا يمكن أن تتغير في أي موضع، ولكن دلالاتها البلاغية الإضافية متجددة دوماً، بحسب الموضع الذي ترِد فيه، ومن هنا راحوا يُفسرون كل بسملة في القرآن بما يتوافق مع المضمون العام للسورة التي تتصدرها هذه البسملة، وفي كثير من الأحيان كانوا يُوضِّحون البسملة بعبارات منتزعة من السورة نفسها، ولعل من أوائل المفسرين الذين سلكوا هذا السبيل القشيري في تفسيره (لطائف الإشارات)، وإن كان في بعض كلامه أحياناً شيء من التكلُّف في ربط معاني البسملة وإشاراتها بالمنحى الصوفي الذي ينتمي إليه(٣).

---

(١) نظم الدرر ٦ / ٣١٧ ، وانظر : البرهان في تناسب سور القرآن صـ٢٣٠ .

(٢) نظم الدرر ٢ / ١٣ ، وانظر : مجموع الفتاوى ١٤ / ٤٤٨ .

(٣) انظر : لطائف الإشارات ١ /٤٤ ، ٢/١٦٤ ، ٣/١٣٨ ، ٤١٧ ، ٦٣٧ ، ٧٧٣ .

أما البقاعي فقد جعل تفسير البسملة بما يتفق مع مقصد السورة من مبادئه المنهجية في التفسير، وفي تقرير هذا يقول : (وأفسر كل بسملة بما يوافق مقصود السورة ، ولا أخرج عن معاني كلماتها)[١].

وفي مقابل هذا فإن خلو سورة "التوبة" من البسملة في فاتحتها جعل العلماء يتساءلون عن الحكمة في ذلك ، وكان من بين أهم الأجوبة التي قدَّموها في هذا الصدد الجواب الذي كان ينظر إلي المضمون الإجمالي لهذه السورة ، ومُلخَّصه أن البسملة أمان ، وهذه السورة نزلت بالسيف والبراءة من المشركين ، ونبذ عهودهم ، فليس فيها أمان[٢].

ب) تناسب خاتمة السورة مع مضمونها :

ويمكن تلخيص أهم وجوه العلاقة بين الخاتمة ومجمل السورة فيما يلي:

أن تكون الخاتمة تقريراً وتأكيداً لمجمل السورة، والأكثرية العظمى من خواتم السور قائمة على هذه العلاقة، وفى هذا يقول ابن تيمية: (لما كانت سورة البقرة سنام القرآن، وأكثر سوره أحكاماً، وأجمعها لقواعد الدين : أصوله وفروعه، ختمها الله تعالى بآيات جوامع مقررة لجميع مضمون السورة، فقال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (البقرة:٢٨٤))[٣].

وقد تشتمل الخاتمة على تفصيل لما أجملته السورة ، ولاسيما في قصار السور ، وهذا ما يبينه الزركشي حين يشير إلى : (تفصيل جملة المطلوب في خاتمة فاتحة الكتاب ، إذ المطلوب الأعلى الإيمان المحفوظ من المعاصي المسببة لغضب الله والضلال، ففصَّل جملة ذلك بقوله :
﴿ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ (الفاتحة:٧) .... ثم وصفهم بقوله : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ يعنى أنهم جمعوا بين النعم المطلقة ، وهى نعمة الإيمان ، وبين السلامة من غضب الله والضلال ، المسببين عن معاصيه ، وتعدى حدوده)[٤].

---

(١) نظم الدرر ١/ ١٢، وانظر فيه أيضاً: ٢/ ٣، ٣/ ١٨١، ٤/ ٣، ٥/ ١٨٢، ٦/ ٤٢.
(٢) انظر: النكت والعيون ٢/ ٣٣٦، مفاتيح الغيب ١٥/ ١٧٢، المحرر الوجيز ٦/ ٣٩٧.
(٣) مجموع الفتاوى ١٤/ ١٢٩، وانظر: التبيان لابن القيم صـ٧٠، والبحر المحيط ٢/٣٧٥.
(٤) البرهان ١/ ١٨٢، وانظر : الإتقان للسيوطي ٣ / ٣٢٠، ومعترك الأقران ١/ ٥٨.

وقد تتضمن الخاتمة الدليل على ما تقدم عرضه أثناء السورة ، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل: ١٢٠)، إلي آخر الآيات، وفيها يقول الرازي: (اعلم أنه تعالى لما زيَّف في هذه السورة مذاهب المشركين في أشياء، منها قولهم بإثبات الشركاء لله تعالى ...، فلما بالغ في إبطال مذاهبهم في هذه الأقوال، وكان إبراهيم عليه السلام رئيس الموحّدين، وقدوة الأصوليين، وهو الذي دعا الناس إلى التوحيد وإبطال الشرك، وإلى الشرائع، والمشركون كانوا مفتخرين به، معترفين بحسن طريقته، مُقرّين بوجوب الاقتداء به، لا جرم ذكره الله تعالى في آخر هذه السورة، وحكى عنه طريقته في التوحيد ، ليصير ذلك حاملاً لهؤلاء المشركين على الإقرار بالتوحيد، والرجوع عن الشرك)(١).

هذه هي أهم العلاقات التي ذكرها العلماء بين خاتمة السورة ومضمونها، على أنه يمكن القول بأن العلاقة الأولى ، وهي علاقة التقرير هي العلاقة الأساسية بين هذه العلاقات ، وأن شيئاً من التأمل سيجعلنا نراها ماثلة أمامنا دائماً – ظاهرة أو كامنة – في جميع خواتم السور.

ج) تناسب فاتحة السورة وخاتمتها مع فصولها:

والمقصود أن يلمح تناسب فاتحة السورة ، أو خاتمتها . أو كلتيهما مع فصل محدد من فصول السورة ، وليس مع السورة بصفة مجملة ، وحديث العلماء عن هذا النوع من التناسب عزيز، وغالباً ما يتركز حديثهم على آية ، أو عدة آيات تندرج ضمن أحد الفصول الواقعة في وسط السورة ، فيربطونها بفاتحة السورة ، أو بخاتمتها ، أو بكلتيهما معاً .

ومن أهم علاقات هذا النوع : الاشتراك ، ومن ذلك قول ابن تيمية عند خاتمة سورة البقرة : (ثم قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ (البقرة:٢٨٥)، فهذه شهادة الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام بإيمانه بما أُنزل إليه من ربه .... ثم شهد تعالى للمؤمنين بأنهم آمنوا بما آمن به رسولهم ، ثم شهد لهم جميعاً بأنهم آمنوا بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، فتضمنت هذه الشهادة إيمانهم بقواعد الإيمان الخمسة التي لا يكون أحدٌ مؤمناً إلا بها، وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر. وقد ذكر تعالى هذه الأصول الخمسة في أول السورة ، ووسطها، وآخرها ، فقال في أولها : ﴿ والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا

(١) مفاتيح الغيب ٢٠ / ١٠٧ ، وانظر : اللباب لابن عادل ١٢ / ١٨٢ .

أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (البقرة:٤)، فالإيمان بما أنزل إليه ، وما أنزل من قبله يتضمن الإيمان بالكتب، والرسل، والملائكة ، ثم قال : ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، والإيمان بالله يدخل في الإيمان بالغيب، وفى الإيمان بالكتب والرسل ، فتضمنت الإيمان بالقواعد الخمس، وقال في وسطها : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (البقرة:١٧٧))[١].

ومن هذه العلاقات : أن يُفصِّل أحد فصول السورة ما ورد مجملاً في فاتحتها ، ومنه قوله تعالى في وسط سورة "المائدة": ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ (المائدة:٩٤)، إلي آخر الآيات ، وفيها يقول الطبرسي: (لما تقدم في أول السورة تحريم الصيد على المُحْرِم مجملاً ، بين سبحانه ذلك هنا)[٢].

د) تناسب فاتحة السورة مع خاتمتها :

قال أبو حيان عند خاتمة سورة البقرة: (لما كان مفتتح هذه السورة بذكر الكتاب المنزَّل، وأنه هُدىً للمتقين الموصوفين بما وُصِفوا به، من الإيمان بالغيب، وبما أُنزل إلى الرسول ، وإلى مَن قبله ، كان مُختتمها أيضاً موافقاً لمفتتحها. وقد تتبعت أوائل السور المطولة، فوجدتها يناسبها أواخرها، بحيث لا يكاد ينخرم منها شيء ، وسأبين ذلك – إن شاء الله – في آخر كل سورة، وذلك من أبدع الفصاحة ، حيث يتلاقى آخر الكلام المفرط في الطول بأوله، وهي عادة للعرب في كثير من نظمهم ، يكون أحدهم آخذاً في شيء ، ثم يستطرد منه إلى شيء آخر، ثم إلى آخر، هكذا طويلاً، ثم يعود إلى ما كان آخذاً فيه أولاً)[٣].

من هنا يمكن القول إن العلاقة الأساسية بين فاتحة السورة وخاتمتها هي : علاقة الاشتراك، بمعنى اشتراك كل من الفاتحة والخاتمة في ذكر المقصود، أو في الإيماء إليه ، وفي تقرير هذه العلاقة الأساسية بينهما يقول الكرماني عند قوله تعالى في خاتمة

---

(١) مجموع الفتاوى ١٤ / ١٣٣ – ١٣٥ .

(٢) مجمع البيان ٧ / ١٩٦ .

(٣) البحر المحيط ٢ / ٢٧٨ ، وانظر فيه أيضاً : ٣ / ٤٢٢ .

سورة الدخان: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الدخان:٥٨): (قوله: ﴿يَسَّرْنَاهُ﴾ أي: الكتاب، بدأ السورة بذكر الكتاب، وختمها به)(١).

ويقول الرازي في خاتمتي سورتي (ص، ق): (أول السورتين وآخرهما متناسبان ، وذلك لأن في (ص) قال في أولها: ﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ (ص:١)، وقال في آخرها: ﴿ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (ص:٨٧)، وفي (ق) قال في أولها : ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (ق:١). وقال في آخرها : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (ق:٤٥)، فافتتح بما اختتم به)(٢).

ومن هذه العلاقة الكبرى : علاقة الاشتراك تتفرع جميع العلاقات الأخرى بين فاتحة السورة وخاتمتها ، ومن هذه العلاقات : علاقة الإيضاح والتبيين بأن تبين الخاتمة المقصود من فاتحتها .

وفي هذا يقول الرازي عند خاتمة سورة البقرة: (بدأ السورة بمدح المُتَّقين: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة:٣)، وبيَّن في آخر السورة أن الذين مدحهم هم أُمَّةُ محمَّدٍ ﷺ فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ (البقرة:٢٨٥). وهذا هو المراد بقوله في أَول السورة: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، ثم قال هاهنا: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وهو المراد بقوله في أول السورة: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، ثم قال ههنا: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، وهو المراد بقوله في أول السورة : ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾، ثم حكى عنهم ههنا كيفية تضرُّعهم إلى ربهم في قولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ إلى آخر السورة، وهو المراد بقوله في أول السورة: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، فانظر كيف حصلت الموافقة بين أول السورة وآخرها)(٣).

وقريب من علاقة الإيضاح علاقة الإكمال ، وفيها يقول الطبرسي عند خاتمة سورة النساء: (لما بين سبحانه في أول السورة بعض سهام الفرائض ، ختم السورة ببيان ما بقي من ذلك)(٤).

---

(١) غرائب التفسير وعجائب التأويل ٢ / ١٠٨٩ ، وانظر فيه : ٢ / ١٢٠١ ، ١٢٤٢.

(٢) مفاتيح الغيب ١٢٥/٢٨، وانظر: مجموع الفتاوى ٢٣٨/١٥، والتبيان لابن القيم صـ٢١١.

(٣) مفاتيح الغيب ٧/ ١١١، وانظر: اللباب لابن عادل ٤/ ٥٢٢، ونظم الدرر ٨/ ٨٨.

(٤) مجمع البيان ٢ / ٣٠٩ ، ٣١٠ .

وتقترب منها أيضاً علاقة التكامل بين فاتحة السورة وخاتمتها، ومن شواهدها خاتمة سورة آل عمران ، فقد افتتحت السورة بذكر الكُتُب المنزَّلة على أنبياء الله ، لتكون الفاتحة مُجاوِبة للخاتمة ، فإن كُتُب الله ما نزلت إلا للحث على التقوى، والصبر على التكاليف، والمصابرة مع الكفار ، والمرابطة في سبيل الله) [١].

ومن العلاقات أيضاً بين فاتحة السورة وخاتمتها : التقابل ، وإليها يُشير الزمخشري بقوله في نهاية سورة (المؤمنون): (جعل فاتحة السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المؤمنون:١)، وأورد في خاتمتها: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (المؤمنون:١١٧)، فشتَّان ما بين الفاتحة والخاتمة)[٢].

ويقول السيوطي في خاتمة سورة الأعراف: (لما ذكر أول السورة استكبار إبليس عن السجود، ختم السورة بـ: ﴿إِنَّ الذين عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (الأعراف:٢٠٦)، وطابق آخر السورة أولها، والتأم مقطعها مع مطلعها)[٣].

ومن العلاقات أيضاً أن تلمح خاتمة السورة إلي ما سبق ذكره صريحاً في فاتحتها، ومن شواهد هذه العلاقة قوله تعالى في نهاية سورة الرحمن: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن:٧٨). يقول القرطبي: (كأنه يريد به الاسم الذي افتتح به السورة، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ﴾. فافتتح بهذا الاسم، فوصف خلق الإنسان والجن، وخلق السموات والأرض، وصنعه، وأنه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن:٢٩)، ووصف تدبيره فيهم، ثم وصف يوم القيامة وأهوالها، وصفة النار، ثم ختمها بصفة الجنان، ثم قال في آخر السورة: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: هذا الاسم الذي افتتح به السورة ، كأنه يعلمهم أن هذا كله فرج لكم من رحمتي)[٤].

ومن العلاقات كذلك أن تتضمن الفاتحة أو الخاتمة الجواب عن سؤال ، أو الاستدلال لأمر ، أو التعليل لشيء ذكر في إحداهما .

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب ١١ / ٩٦ ، واللباب ٧ / ١٥٨ ، نظم الدرر ٥ / ١٨١.

(٢) الكشاف ٣ / ٢٠٧ ، وانظر : غرائب التفسير للكرماني ٢ / ٧٦٩ .

(٣) قطف الأزهار ٢ / ٩٧٥ ، وانظر : نظم الدرر ٣ / ١٨٠ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٧ / ١٩٣ ، وانظر : اللباب ١٨ / ٣٦٦ .

ففي الجواب عن السؤال يقول البقاعي عند قوله تعالى في آخر سورة المعارج: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ . خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (المعارج:٤٣، ٤٤)، وهذا هو زمان العذاب الذي سألوا عنه أول السورة، فقد رجع كما ترى آخرها على أولها)[١].

وفي الاستدلال لأمر يقول الرازي في ختام سورة "القيامة": (اعلم أنه تعالى لما ذكر في أول السورة، قوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ (القيامة:٣)، أعاد في آخر السورة ذلك ، وذكر في صحة البعث دليلين، الأول : قوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (القيامة:٣٦)، الدليل الثاني: الاستدلال بالخِلقة الأولى على الإعادة ، وهو المراد من قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾ (القيامة:٣٧))[٢].

وفى التعليل لشيء ذكر في إحداهما يقول ابن عادل في خاتمة سورة "يوسف": (قال في أول السورة : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ (يوسف:٣)، ثم قال هنا: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (يوسف:١١١)، وذلك تنبيه على أن حُسن هذه القصة ، إنما هو لأجل حصول العبرة منها ، ومعرفة الحكمة والقدرة)[٣].

هـ) تناسب فصول السورة:

ومن الروابط التي تربط فصول السورة بعضها ببعض تثنية المعاني ، وفيها يقول ابن تيمية في حديثه عن سورة الفاتحة : (فقد ثبت بهذا النص [٤] أن هذه السورة منقسمة بين الله وبين عبده ، وأن هاتين الكلمتين مقتسم السورة ، ف ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ مع ما قبله لله ، و ﴿ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ مع ما بعده للعبد ، وله ما سأل ؛ ولهذا قال مَن قال مِن السلف : نصفها ثناء ، ونصفها مسألة)[٥].

---

(١) نظم الدرر ٨ / ١٦١ .

(٢) مفاتيح الغيب ٣٠ / ٢٠٦ .

(٣) اللباب ١١ / ٢٣١ ، انظر : مفاتيح الغيب ١٨ / ١٨١ .

(٤) يقصد الحديث القدسي: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين: نصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل ...) انظر الحديث في صحيح مسلم بشرح النووي ٤/ ١٠١.

(٥) مجموع الفتاوى ١٤/ ٨، وانظر: مفاتيح الغيب ٢٩/ ١٢٠، ونظم الدرر ١/ ١١٤.

ومن العلاقات بين فصول السورة : العلاقة القائمة على ترابط مقاصد القرآن الكبرى، وتكاد تكون هذه العلاقة أكثر العلاقات وروداً في حديث العلماء عن تناسب فصول السورة ، وفيها يقول ابن عادل عند قوله تعالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (الحجر:٥١): (لما قرّر أمر النبوة ، وأردفه بدلائل التوحيد ، ثم عقَّبه بذكر أحوال القيامة ، وصفة الأشقياء ، والسُّعداء ، أتبعه بذكر قصص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، ليكون سماعها مرغِّباً للعبادة الموجبة للفوز بدرجات الأولياء ، ومُحذراً عن المعصية الموجبة لاستحقاق دركات الأشقياء)[١].

ومن العلاقات بين فصول السور كذلك : التدرج في عرض المعاني ، وعن هذه العلاقة يقول الخطيب الإسكافي في حديثه عن فصول سورة "الواقعة": (قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ . أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ وبعده : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ . أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ وبعده : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ . أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾ وبعده : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ . أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ (الواقعة:٥٨-٧٢). للسائل أن يسأل عن ترتيب هذه الأشياء التي تختص بقدرة الله تعالى ، وتقديم بعضها على بعض ، وهل كان يجوز تقديم ذكر النار على ذكر الماء؟ والجواب أن يقال : الأول هو خلقُ الإنسان من نطفة والنعمة في ذلك قبل النعمة في الثلاثة الأُخَر التي بعده ، فوجب تقديمه ، ثم بعده ما به قوام الإنسان من فائدة الحرث ، وهى الطعام الذي لا يستغني عنه جسد الحيّ ، وهو ذلك الحَبّ الذي يُختبز، فيحتاج بعد حصوله إلي حصول ما يُعجَن به ، وهو الماء ، ثم إلى النار التي تُعِدُّه خُبزاً ، فالترتيب على حسب الحاجة)[٢].

ومن التدرج في عرض المعاني : مراعاة التدرج الزماني في عرض القصص ، وفي هذا يقول البقاعي عند قوله تعالى : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ (هود:٦١): (ولما انقضت قصة عاد على ما أراد سبحانه ، أتبعها قصة من كانوا عَقِبهم في الزمن ، ومثلهم في سُكنى أرض العرب ، وعبادة الأوثان)[٣].

(١) اللباب ١١ / ٤٦٦ ، وانظر فيه أيضاً : ٣ / ١٦٨ ، ٤ / ٢٤٦ ، ٦ / ٤٠٢.
(٢) درة التنزيل وغرة التأويل ٣/ ١٢٤٧، وانظر : البرهان في متشابه القرآن صـ٢٣٢.
(٣) نظم الدرر ٣ / ٥٤٧ .

كذلك من العلاقات بين فصول السورة : الاشتراك ، وفي ذلك يقول ابن عادل عند قوله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (الشعراء:٦٩): (اعلم أنه تعالى ذكر في أول السورة شدة حزن محمد عليه السلام ، ثم ذكر قصة موسى عليه السلام ، ليُعرِّف محمداً ﷺ أن مثل تلك المحنة كانت حاصلة لموسى ، ثم ذكر عقيبها قصة إبراهيم ، ليُعرِّف محمداً صلى الله عليهم جميعاً وسلم أن حزن إبراهيم بهذا السبب كان أشد من حُزنه)(١).

ومن العلاقات بين فصول السورة : تعديد الأنواع ، وعنها يقول الزمخشري في حديثه عن صدر سورة "البقرة" : (افتتح سبحانه بذكر الذين أخلصوا دينهم لله ، وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم ، ووافق سرُّهم علنهم ، ثم ثنى بالذين محضوا الكُفر، ظاهراً وباطناً ، ثم ثلث بالذين آمنوا بأفواههم ، ولم تؤمن قلوبهم) (٢).

ومن العلاقات كذلك بين فصول السورة : التنويع في البيان ، وفي العلاقة يقول الرازي عند قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:١٢٤): (اعلم أنه تعالى لما استقصى في شرح وجوه نعمه على بني إسرائيل ، ثم في شرح قبائحهم في أديانهم وأعمالهم، وختم هذا الفصل بما بدأ به ، وهو قوله : ﴿ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (البقرة:١٢٢، ١٢٣). شرع سبحانه ههنا في نوع آخر من البيان، وهو أن ذكر قصة إبراهيم عليه السلام ، وكيفية أحواله ، والحكمة فيه أن إبراهيم عليه السلام شخص يعترف بفضله جميع الطوائف ، فحكى الله تعالى عن إبراهيم أموراً توجب على المشركين واليهود والنصارى قبول قول محمد ﷺ والاعتراف بدينه ، والانقياد لشرعه) (٣).

(١) اللباب ١٥ / ٣٨ ، وانظر : البحر المحيط ٤ / ٤٥٦ .
(٢) الكشاف ١ / ٥٤ ، وانظر : مفاتيح الغيب ٢ / ٥٣ .
(٣) مفاتيح الغيب ٤ / ٣١ .

المطلب الثاني : التناسب التفصيلي بين الآيات .

علمنا أن كثيراً من المفسرين وبخاصة المفسرين بالرأي عنوا ببيان المناسبات بين الآيات ، والمناسبة بين الآيات تتنوع في الجملة إلي نوعين :

الأول : المناسبة المعنوية .

بمعنى أن بين كل آية وآية سابقة عليها رابطاً قوياً وروحاً يسري في أوصال الآيتين معاً ، وهذا موجود بين كل آيتين في القرآن الكريم ، يستشفه المفسر والباحث ، فنلاحظ أن الآيات يسري فيها الارتباط القوي المتين ، وهو بمناسبة الأنسجة الموجودة في الجسم السارية بين الأعضاء والمفاصل الجامعة لها والرابطة بينها ولا غنى عنها ، فكل آية في القرآن لا تخلو مع ما قبلها من مناسبة معنوية ، وتكون في الأعم الأغلب واضحة جلية ، وأحياناً تكون غامضة خفية تحتاج إلي لطف حس ومهارة فائقة .

الثاني : المناسبة اللغوية .

بمعنى أن تكون الآية متعلقة بما قبلها تعلقاً إعرابياً ، ويكون لها دخل ما في تمام الكلام وفي كمال المعنى ، وهذا يوجد في آيات كثيرة في القرآن الكريم، وهذه المناسبة جلية واضحة لا غموض فيها [1]، ويندرج تحت هذا النوع من المناسبة بين الآيات أنواع شتى من العلاقات بين الآيات، وإليكها[2]:

١) علاقة التقابل .

ومن شواهدها قوله تعالى : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ. وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (الزمر:٣٢، ٣٣)، وفي هاتين الآيتين يقول ابن عادل: (لما ذكر الله من افترى على الله الكذب، أو كذب بالحق ، ذكر مُقابِله ، وهو الذي جاء بالصِّدْق، وصدَّق به)[3].

٢) علاقة الاستدلال .

ومن شواهدها قوله تعالى: ﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ . اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ (الرعد:١، ٢)،

---

(١) انظر : العقد الفريد ، د / إبراهيم الديب صـ٣٢ ، ٣٥ .

(٢) انظر فيها: الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية صـ٢٤٧ وما بعدها، العقد الفريد صـ٣٥ وما بعدها.

(٣) اللباب في علوم الكتاب ١٦ / ٥١٢ .

وفيه يقول الزجاج : (لَمَّا ذكر أنهم لا يؤمنون ، عرَّف الدليل الذي يُوجب التصديق بالخالق عزَّ وجلّ، فقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَع السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾، وفي ذلك من القُدرة والدلالة ما لا شيء أوضح منه)[١].

٣) علاقة التفريع .

والمقصود بها أن ينعطف الكلام من المعنى الذي كان فيه إلي معنى آخر تابع له ، أو متفرع عنه بوجه من الوجوه ، وفي كثير من الأحيان يكون سبب هذا التفريع دلالة محددة تضمنها المعنى الأول ، أو لفظة معينة وردت فيه ، فينجر الكلام إليها ، وينعطف الخطاب للحديث عنها .

ومن شواهدها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا. وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (النساء:١٢٤، ١٢٥). يقول ابن عادل: (لما شَرَطَ في حُصُول النَّجاة ، والفَوْزِ بالجنَّة كون الإنْسَان مُؤمِناً ، شَرَح هَاهُنَا الإيمَان ، وبَيَّن فَضْلَه)[٢].

ومن شواهدها أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ (المؤمنون:٢١-٢٣)، وهنا يشير البقاعي إلي مناسبة ذكر قصة نوح عليه السلام بعد ذكر لفظ الفُلْك في الآية السابقة، ذلك: (لأن نجاته ونجاة المؤمنين معه كانت بالفُلْك المختوم به الآية قبله)[٣].

٤) علاقة التعليل .

ومن شواهدها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (البقرة:٦، ٧)، وفيها يقول ابن عادل : (اعلم أنه تعالى لما بيَّن في الآية الأُولى أنَّهُمْ لا يؤمنون ، أخبر في هذه الآية السبب الذي لأجله لم يُؤمِنوا ، وهو الختم)[٤].

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣ / ١٣٦ .

(٢) اللباب في علوم الكتاب ٧ / ٣٦ .

(٣) نظم الدرر ٥ / ١٩٥ .

(٤) اللباب في علوم الكتاب ١ / ٣٢٠ .

٥) علاقة الاشتراك والمماثلة .

ومن شواهدها قوله تعالى :﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ. وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات:٤٦، ٤٧). يقول الطبرسي: (وجه اتصال قوله : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ بما قبله هو أنه في قوم نوح آية ، وفي السماء أيضا آية ، فهو متصل به في المعنى)[١].

٦) علاقة التمثيل .

ومن شواهدها قوله تعالى بعد أن عدَّد أوصاف المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (البقرة:١٧)، يقول الزمخشري: (لما جاء بحقيقة صِفَتهم ، عقبها بضرب المثل ، زيادة في الكشف ، وتتميماً للبيان . ولضرب العرب الأمثال ، واستحضار العلماء المُثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيّات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تُريك المُتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المُتيقن، والغائب كأنه مُشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الأبيّ ، ولأمرٍ ما أكثر الله في كتابه المبين، وفي سائر كُتُبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله ﷺ، وكلام الأنبياء والحكماء، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت:٤٣)، ومن سور الإنجيل سورة الأمثال)[٢].

٧) علاقة الرد على شبهة أو الإجابة عن سؤال ظاهر أو مقدر .

ومن شواهدها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ. بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٨٠، ٨١)، وفي مناسبة الآية الثانية للأولى: أنه لما تضمن الكلام السابق ادّعاء الكُفار أنهم لا يُعذبون بالنار إلا زماناً مخصوصاً يسيراً، رد عليهم ذلك بوجهين:

الأول: مُطالبتهم بالدليل على ذلك، حسبما تضمنه: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾.

الثاني: أنّهم لما عجزوا عن الإتيان بالدليل، احتمل أن يكون دعواهم في نفس الأمر صحيحة، فأتى بهذا الدليل على بُطلانها ، فقال : ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً ... ﴾.

---

(١) مجمع البيان ٢٧ / ٢٣ .

(٢) الكشاف ١ / ٧٢ .

٨) علاقة الإجمال ثم التفصيل .

ومن شواهدها قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ. وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ. وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (الأنعام:١٠٩-١١١)، وفي تناسب الآية الأخيرة مع ما قبلها يقول ابن عادل: (اعلم أنه تعالى بيَّن في هذه الآية الكريمة تفصيل ما ذَكَره مُجْمَلاً في قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾)(١).

ومن الإجمال ثم التفصيل: الإيضاح بعد الإبهام، ومن شواهد هذه العلاقة قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ. الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر:١٧، ١٨)، ثم قال تعالى بعد أربع آيات: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ (الزمر:٢٣)، وفي تناسب هذه الآية مع الآيتين السابقتين يقول الطبرسي: (اتصل قوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ بما تقدم من قوله : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ. الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي: فإن أحسن الحديث القرآن، فهو أولى بالإتباع)(٢).

٩) علاقة التدرج في عرض المعاني .

ومن شواهدها قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ..... وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (النور:٣٠-٣٣)، وفي تناسب هذه الآيات الأربع يقول الزمخشري : (وما أحسن ما رتب هذه الأوامر، حيث أمر أولاً بما يعصم من الفتنة ، ويُبعد عن مُواقَعة المعصية ، وهو غَضُّ البصر ، ثم بالنكاح الذي يُحصَّن به الدين ، ويقع به الاستغناء بالحلال عن

(١) اللباب في علوم الكتاب ٨ / ٣٧٨ .

(٢) مجمع البيان ٢٤ / ١٥١ .

الحرام ، ثم بالحمل على النفس الأمَّارة بالسُّوء، وعزفها عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح، إلى أن يُرزَق القدرة عليه)[1].

١٠) علاقة ترابط مقاصد القرآن الكبرى وموضوعاته الأساسية .

ومن شواهدها قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ . مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ **(الأعراف:١٨٤-١٨٧)، وفي تناسب هذه الآيات يقول البقاعي: (لما بيَّن التوحيد والنبوة والقضاء والقدر ، أتبعه المعاد ، لتكمل المطالب الأربعة التي هي أُمهات مطالب القرآن)[2].**

١١) علاقة التقسيم وتعديد الأنواع .

ومن شواهدها قوله تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ . وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ **(البقرة:٧٥-٧٨)، وفي تناسب هذه الآيات يقول الرازي : (اعلم أن المراد بقوله :** ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ **اليهود ، لأنه تعالى لما وصفهم بالعناد، وأزال الطمع عن إيمانهم، بيَّن فِرَقهم، فالفرقة الأولى : هي الفرقة الضالة المضلة ، وهم الذين يُحرفون الكَلِم عن مواضعه ، والثانية : المنافقون ، والثالثة : الذين يجادلون المنافقين، والرابعة : هم المذكورون في هذه الآية ، وهم العامة الأميون الذين لا معرفة عندهم بقراءة ولا كتابة ، وطريقتهم التقليد ، وقبول ما يُقال لهم)[3].**

١٢) علاقة الاقتضاء واللزوم (البناء على ما تقدم) .

ومن شواهدها قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ . لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

---

(١) الكشاف ٣ / ٢٣٨ .

(٢) نظم الدرر ٣ / ١٦٥ .

(٣) مفاتيح الغيب ٣ / ١٢٧ .

(الحجر:٨٧–٨٨)، يقول ابن عادل : (لما عرَّف رسوله عظيم نِعَمه عليه ، فيما يتعلق بالدِّين، وهو أنه تعالى آتاه سبعاً من المثاني ، والقرآن العظيم نهاه عن الرغبة في الدنيا ، فقال : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا ...... ﴾، أي: لا تشغل سرك وخاطرك بالالتفات إلى الدنيا، وقد أُوتيت القرآن العظيم)(١).

١٣) علاقة التعميم بعد التخصيص .

ومن شواهدها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر:٩٧–٩٩)، يقول البقاعي: (لما أمره بعبادة خاصة، أتبعه بالعامة، فقال: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ﴾)(٢).

١٤) علاقة التخصيص بعد التعميم .

ومن شواهدها قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (البقرة:١٦٨)، ثم قال تعالى بعد ثلاث آيات : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (البقرة:١٧٢)، يقول البيضاوي : (لما وسَّع الأمر على الناس كافة ، وأباح لهم ما في الأرض ، سوى ما حرم عليهم ، أمر المؤمنين منهم أن يتحروا طيبات ما رزقوا ويقوموا بحقوقها)(٣).

١٥) علاقة تنوع البيان .

ومن شواهدها قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأنعام:٣٣–٣٤)، يقول ابن عادل : (لما أزال الحُزْنَ عن قَلْبِ رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام في الآية الأولى، بأن بَيَّنَ أن تكذيبهم يَجْرِي مجرى تكذيب الله تعالى، ذكر في هذه الآية طريقاً آخر في إزالة الحُزْن عن قلبه ، وذلك بأنْ بَيَّنَ أن سائر

(١) اللباب في علوم الكتاب ١١ / ٤٨٨ ، وانظر : مفاتيح الغيب ١٩ / ١٦٦ .
(٢) نظم الدرر ٤ / ٢٤١
(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ١ / ٤٤٩ .

الأمم عاملوا أنبياءهم بمثلِ هذه المعاملة ، وأن أولئك صَبَرُوا على تكذيبهم وإيذائهم، حتى آتاهم الله النَّصْرَ، والفَتْحَ والظَّفر، فوجب أن يقتدي بهم في هذه الطريقة)[1].

١٦) علاقة التأكيد .

ومن شواهدها قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ. وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران:١٢٨-١٢٩)، يقول الرازي : (المقصود من هذا تأكيد ما ذكره أولاً من قوله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ والمعنى: أن الأمر إنما يكون لمن له الملك، ومُلك السماوات والأرض ليس إلا لله تعالى)[2].

١٧) علاقة الاستدراك والاحتراس .

ومن شواهدها قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ (البقرة:٢٥٢-٢٥٣)، يقول أبو حيان الأندلسي: (مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما ذكر اصطفاء طالوت على بني إسرائيل ، وتفضيل داود عليهم بإيتائه الملك والحكمة، وتعليمه، ثم خاطب نبيه محمداً ﷺ بأنه من المرسلين، وكان ظاهر اللفظ يقتضى التسوية بين المرسلين، بيَّن بأن المرسلين متفاضِلون أيضاً، كما كان التفاضل بين غير المرسلين، كطالوت وبني إسرائيل)[3].

١٨) علاقة الاستثناء .

ومن شواهدها قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ . إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (هود:٩-١١)، يقول البقاعي: (أي أن كل إنسان ﴿لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي: خارج عن الحد في فرحه ، شديد الإفراط في فخره على غيره ، بكل نعمة تفضَّل الله عليه بها،لا يملك ضرَّ نفسه ومنعها

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ٨ / ١١٤ ، وانظر : مفاتيح الغيب ١٢ / ١٧٠ .

(٢) مفاتيح الغيب ٨ / ١٩٢ .

(٣) البحر المحيط ٢ / ٢٨٢ .

من ذلك ، فلذا اتصل بها قوله مستثنياً من الإنسان المراد به اسم الجنس : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾[١].

١٩) علاقة التفسير والبيان .

ومن شواهدها قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (البقرة:٢٦٧)، وفي تناسب هذه الآية مع الآيات السابقة التي تتحدث أيضاً عن الإنفاق ، يقول ابن عادل : (اعلم أنه تعالى لما ذكر الإنفاق على قسمين ، وبيّن كل قسم ، وضرب له مثلاً ، ذكر في هذه الآية كيفية الإنفاق)[٢].

٢٠) علاقة ذكر الفذلكة (الخلاصة).

ومن شواهدها قوله تعالى: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ. وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (البقرة:١٢٢، ١٢٣)، يقول البيضاوي: (لما صدَّر قصتهم بذكر النعم، والقيام بحقوقها، والحذر من إضاعتها، والخوف من الساعة وأهوالها، كرر ذلك ، وختم به الكلام معهم ، مبالغة في النصح ، وإيذانا بأنه فذلكة القضية ، والمقصود من القصة)[٣].

٢١) علاقة ذكر الوسيلة .

ومن شواهدها قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ . يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة:١٥٢-١٥٣)، يقول الرازي : (اعلم أنه تعالى لما أوجب بقوله : ﴿ فَاذْكُرُونِى ﴾ جميع العبادات ، وبقوله : ﴿ وَاشْكُرُواْ لِي ﴾ ما يتصل بالشكر، أردفه ببيان ما يعين عليهما ، فقال : ﴿ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ وإنما خصَّهما بذلك ، لما فيهما من المعونة على العبادات)[٤].

٢٢) علاقة تناسب القَسَم مع المُقْسَم عليه .

---

(١) نظم الدرر ٣ / ٥٠٨ .

(٢) اللباب في علوم الكتاب ٤ / ٤٠٧ ، وانظر منه أيضاً : ١٧ / ٤٨٠ .

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ١ / ٣٩٤ .

(٤) مفاتيح الغيب ٤ / ١٣١ .

ومن شواهدها قوله تعالى : ﴿وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (الضحى: ١-٣)، يقول ابن القيم : (تأمل مُطابقة هذا القَسَم ، وهو نور الضُّحَى الذي يُوافي بعد ظلام الليل للمُقْسَم عليه ، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه ، حتى قال أعداؤه ودَّع محمداً ربه ، فأقسم بضوء النهار بعد ظُلمة الليل ، على ضوء الوحي ونوره بعد ظُلمة احتباسه واحتجابه . وأيضاً فإن فالق ظُلمة الليل عن ضوء النهار هو الذي فلق ظُلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة ، فهذان للحس ، وهذان للعقل . وأيضاً فإن الذي اقتضت رحمته ألا يترك عباده في ظُلمة الليل سرمداً ، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم ، لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغَيّ ، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دُنْياهم وآخرتهم . فتأمل حُسن ارتباط المُقْسَم به بالمُقْسَم عليه ، وتأمَّل هذه الجزالة ، والرونق الذي على هذه الألفاظ ، والجلالة التي على معانيها)[١] .

وبهذه العلاقة يكتمل الحديث عن أهم العلاقات التي تربط بين الآيات في التناسب التفصيلي، والذي جاء تالياً للحديث عن أهم العلاقات التي تربط بين أجزاء السورة الأساسية في التناسب الإجمالي ، وبهذا ينتهي الكلام في بحوث العلماء التطبيقية في التناسب بنوعيه : الإجمالي ، والتفصيلي.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن صـ٨٤ ، وانظر : الإتقان ٤ / ٥١ .

المبحث السابع:
المآخذ على بحوث العلماء التطبيقية في التناسب

إن المتتبع لبحوث العلماء التطبيقية في علم التناسب لا يستطيع أن يغمض عينيه عن بعض الهنات التي شابت بعض هذه البحوث، والتي لم تكن ناتجة فحسب عن الإخلال بقواعد علم التناسب ، بل كانت أيضاً ناتجة عن شيء من التسرع في الاجتهاد، أو في قبول اجتهادات الآخرين، دون التثبت من القيمة العلمية والموضوعية لهذه الاجتهادات، وبمكن تلخيص أهم المآخذ العلمية على بحوث العلماء في التناسب في الآتي[1]:

١) التمحل والتكلف وقسر المعاني والتعسف في الربط .

ومن أمثلته قول الرازي في الربط بين الآيتين في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ. وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة:١٥٢-١٥٣): (وجه تعلق الآية لما قبلها، كأنه قيل: استعينوا بالصبر والصلاة في إقامة ديني، فإن احتجتم في تلك الإقامة إلى مجاهدة عدوي بأموالكم وأبدانكم، ففعلتم ذلك فتلفت نفوسكم، فلا تحسبوا أنكم ضيعتم أنفسكم، بل اعلموا أن قتلاكم أحياء عندي)[2].

٢) التجزيئية (غياب البعد الكلي في التناول)، والشكلية (القبول بأدنى مناسبة حتى ولو كانت متهافتة).

ومن أمثلته قول ابن عرفة: (قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ (البقرة:٢٣٨)، إن قلت: ما وجه مناسبتها، مع أن ما قبلها في شأن الزوجات؟ قلنا: الجواب عنه بأمرين: إما بأنه تنبيه الأزواج ألا يشتغلوا بأمور زوجاتهم عن الصلوات، وإما بأن بعضهم كان لا يراعي المناسبة ، ولا يشتغل بها)[3].

والشاهد في كلام ابن عرفة هو الجواب الأول . أما الجواب الثاني فهو تخلص لطيف منه يظهر أنه لم يكن مقتنعاً بجوابه الأول.

---

(١) انظر : الوحدة السياقية للسورة صـ٢٦٩ .

(٢) مفاتيح الغيب ٤ / ١٣٢ ، وانظر فيه أيضاً : ٤ / ١٤٢ ، ٦ / ٤٧ .

(٣) تفسير ابن عرفة ٢/ ٦٨٨ .

ومن أمثلته أيضاً قول بعض المفسرين في مناسبة خاتمة سورة "التوبة" لفاتحتها: (ناسب آخر السورة أولها، إذ في أولها الاسم الأعظم، وهو (الله)، وفي آخرها ذكره في ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ (التوبة:١٢٩)، وأولها ذكر الله ورسوله، وآخرها ذكر الله ورسوله أيضاً، وفي أولها أيضاً: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ (التوبة:٣)، وفي آخرها أن من تولى لا يلتفت إليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ (التوبة:١٢٩) ومن جملة من تولى: المشركون)(١).

٣) التنازع والاختلاف في تقدير المناسبات، والتكثر من وجوه المناسبات للآية الواحدة.

وهذان المأخذان مترابطان، ويؤدي كل واحد منهما إلي الآخر، فاختلاف العلماء في تقدير المناسبات أدى بالمتأخرين إلي الإكثار من إيراد وجوه المناسبات، كما أن الرغبة في التكثُّر من وجوه المناسبات أدت إلي إبراز هذا الاختلاف، ويمكن التمثيل للتنازع بين العلماء في تقدير المناسبات بين الآيات بما ذكره ابن عرفة عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:٦٣)، حيث قال: (قدَّر الفخر ابن الخطيب وجه مناسبتها لما قبلها بأنها نعمة. قال ابن عرفة: الصواب أنها وعظ، لأن قبلها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ (البقرة:٦٢)، إلى آخره، وهو وعظ ونعمة لجميع الملل)(٢).

كما يمكن التمثيل للتكثُّر من وجوه المناسبات بصنيع الرازي الذي كان دأبه في مواضع عديدة من تفسيره إيراد أكثر من وجه من وجوه المناسبات للآية الواحدة (٣)، وهو المنهج الذي جاراه فيه كثير من المفسرين بعده ، وأبرزهم ابن عادل في تفسيره(٤). أما أبو حيان، فقد راح يسرد عند قوله تعالي: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ (الأنفال:٥) خمسة عشر قولاً في وجه تناسبها مع ما قبلها ، ثم أضاف إليها تخريجاً (منامياً) ذكر أنه رأى نفسه في النوم وهو يباحث رجلاً فيه ، وأنهما مالا إليه!(٥)، ثم جاء

(١) تسهيل السبيل للبكري ٢ / ١٠٢٤ ، نقلاً عن الوحدة السياقية صـ٢٧٠.
(٢) تفسير ابن عرفة ٣١٢/١ ، وانظر : اللباب لابن عادل ٤٥٠/٩.
(٣) انظر مثلاً في مفاتيح الغيب ٤ / ١٤٢ ، ٧ / ٣٩ ، ٧٣ ، ٨ / ١٢٤ ، ٣٠/ ١٩٦.
(٤) انظر مثلاً اللباب ٥/ ٣٩٦، ٥٠٧، ٧/ ٤١، ٩/ ٤٠٩ ، ٢٢١/١٢ ، ٥٥٨/١٩.
(٥) انظر : البحر المحيط ٤ / ٤٥٦ – ٤٥٨ .

ابن عادل بعده ليزيد من عدد الأقوال المذكورة في هذه الآية، ويوصلها إلي عشرين قولاً [١].

على أن نظرة متأنية لهذه الظاهرة المزدوجة ، وهي اختلاف العلماء في تقدير وجه المناسبة ، وتكثُّر فريق منهم من وجوه المناسبات ستقودنا إلي اكتشاف عدة أسباب موضوعية تقف خلف هذه الظاهرة .

ويمكن تلخيص أهم أسباب هذه الظاهرة فيما يلي :

السبب الأول : الاختلاف في الحُكم على نوع التناسب .

قد يختلف التقدير بين المفسرين في الحكم على نوع التناسب بين بعض الآيات، هل هو من تناسب الفصول ، فيكون تناسباً إجمالياً ، أو من تناسب الآيات ، فيكون تناسباً تفصيلياً. وتناسب الفصول أقرب أنواع التناسب الإجمالي إلي التناسب التفصيلي ، ولهذا فهو يشتبه به في مواضع عديدة ، بسبب عدم وجود تمييز واضح عند معظم المفسرين لحدود كل فصل من فصول السورة القرآنية ، ومن هنا يختلف التقدير بينهم، وإذا كان تعريف الفصل أنه : مجموعة متكاملة من الآيات المتعاقبة ذات الموضوع الواحد، فإن حدود هذا الموضوع ضِيقاً واتساعاً تتفاوت ما بين مفسِّر وآخر .

فقد ينظر أحد المفسرين إلي مجموعة معينة من الآيات المتعاقبة على أنها ذات موضوع واحد متكامل ، فيعدُّها فصلاً مستقلاً من فصول السورة ، ويبحث من ثَم عن تناسبها الإجمالي مع بقية فصول السورة . فيما قد يرى مُفسر ثانٍ أن هذه المجموعة من الآيات إنما هي جزء من موضوع أكبر يضم آيات أخرى قبلها، أو بعدها ، فيبحث عن تناسبها التفصيلي مع الآية ، أو الآيات السابقة، أو اللاحقة لها ، والتي تنتمي للفصل نفسه في تقديره.

وقد يجمع مُفسِّر ثالث بين هذين التقديرين ، وكأنه يرى أن الآية حتى لو كانت فاتحة لفصل جديد من فصول السورة، أو تذييلاً لفصل سابق، فلابد أن تتناسب تناسباً تفصيلياً مع الآية، أو الآيات السابقة لها، أو اللاحقة، ولهذا فهو يذكر لها عدة وجوه من المناسبات، نظراً إلي تناسبها الإجمالي مرة، وإلي تناسبها التفصيلي مرة أخرى.

---

(١) انظر : اللباب ٩ / ٤٥٠ – ٤٥٢ .

ومن الأمثلة على هذا السبب ما ذكره ابن عادل عند قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (الإسراء:٧٨). فقد قال : (في النظم وجوه :

أولها: أنه تعالى لمَّا قرَّر الإلهيَّات، والمعاد، والنبوة، أردفها بذكر الآية بالطاعات، وأشرف الطاعات بعد الإيمان الصلاة ، فلهذا أمر بها .

وثانيها: أنه تعالى لمَّا قال: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرض﴾ (الإسراء:٧٦)، أمره تعالى بالإقبال على عبادته ، لكي ينصره الله ، فكأنَّه قيل: لا تُبالِ بسعيهم في إخراجك من بلدك ، ولا تلتفت إليهم ، واشتغل بعبادة الله، والدوام على الصلاة ، فإنه تعالى يدفع مكرهم وشرَّهم عنك)[1].

ومن الواضح هنا أن ابن عادل نظر إلي الآية من جهتين ، فقد ربطها أولاً بما قبلها من فصول السورة ، بناءً على علاقة من علاقات التناسب الإجمالي لفصول السورة، وهي علاقة ارتباط مقاصد القرآن الكبرى ، ثم ربطها ثانياً بالآيتين السابقتين لها، بناء على علاقة من علاقات التناسب التفصيلي ، وهي علاقة ذِكر الوسيلة.

السبب الثاني : الاختلاف في موضع الاتصال .

قد يتفق المفسرون في الحكم على نوع التناسب بين الآيات ، فيرون مثلاً أنه من تناسب الفصول ، أي من التناسب الإجمالي ، لكنهم قد يختلفون في موضع الاتصال، أي: بأيِّ فصل تُربط هذه الآية، فيربطها بعضهم بأحد الفصول القريبة أو البعيدة، فيما يربطها آخرون بفصل آخر. وهذا ما يحدث أيضاً بالنسبة للنوع الآخر من التناسب، وهو التناسب التفصيلي، فقد يرون عند إحدى الآيات أن التناسب فيها تناسب الآيات المتجاورة ، أي من التناسب التفصيلي، لكنهم قد يختلفون بعد ذلك في تحديد موضع الاتصال بين الآيتين ، فقد يرى بعضهم أن الآية تتصل بأمر مذكور في بداية الآية السابقة لها ، وقد يُقدِّر آخرون أنها تتصل بأمر مذكور في وسط تلك الآية أو في ختامها ، فيما قد يقدِّر آخرون أنها لا تتصل بالآية السابقة لها مباشرة ، بل بآية أسبق منها ، وهكذا .

(١) اللباب ١٢ / ٣٥٤ ، وانظر : مفاتيح الغيب ٢١ / ٢١ .

ومن الأمثلة على هذا السبب ما ذكره الرازي عند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:٢٧٤)، فقد قال : (في كيفية النظم أقوال:

الأول: لما بين في الآية المتقدمة أن أكمل من تُصرَف إليه النفقة من هو، بين في هذه الآية أن أكمل وُجوه الإنفاق كيف هو، فقال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ... ﴾.

والثاني: أنه تعالى ذكر هذه الآية لتأكيد ما تقدم من قوله: ﴿إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ (البقرة: ٢٧١).

السبب الثالث : الاختلاف في تقدير نوع العلاقة .

وقد تتفق وجوه التناسب في الحكم على نوع التناسب، وفي تحديد موضع الاتصال بين الآيتين ، لكن تختلف فيما بينها في تقدير نوع العلاقة بين الآيتين.

ومن الأمثلة على هذا السبب ما ذكره الرازي عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ (الإسراء:١٢). فقد قال: (في تقرير النظم وجوه :

الوجه الأول : أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة ما أوصل إلى الخلق من نِعَم الدين، وهو القرآن ، أتبعه ببيان ما أوصل إليهم من نِعَم الدنيا ...

والوجه الثاني: أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة أن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، وذلك الأقوم ليس إلا ذِكر الدلائل الدالة على التوحيد والنبوة، لا جَرَمَ أردفه بذكر دلائل التوحيد ، وهو عجائب العالم العلوي والسفلي)[1].

ومن البيّن هنا أن الرازي قد ربط هذه الآية في كلا الوجهين بآية سابقة لها، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء:٩)، لكنه عدَّ العلاقة في الوجه الأول قائمة على المقابلة بين نِعَم الدين، ونِعَم الدنيا، فيما جعل العلاقة في الوجه الثاني من باب التفصيل بعد الإجمال.

السبب الرابع : ولع بعض المفسرين بحشد الأقوال .

(١) مفاتيح الغيب ٢٠ / ١٣١ ، وانظر فيه أيضاً : ٨ / ١٢٤ .

وهذا السبب ذاتي محض، فقد راح بعض المفسرين يحشد الأقوال المتضاربة، ويستقصي جميع الاجتهادات في تناسب الفصول والآيات، مهما بدت متناقضة فيما بينها ، أو متهافتة في فكرها ، ومن أبرز هؤلاء المفسرين الرازي وابن عادل، وقد سبقت الإحالة إلي مواضع عديدة من تفسيرهما تبرز هذا الولع بحشد الأقوال في تناسب الآيات ، وهو الولع الذي أسهم في امتداد هذه الظاهرة واتساعها.

السبب الخامس : اجتهادات العلماء المتنوعة حول الآيات التي أشكلت مناسبتها.

من المعلوم أن التناسب في القرآن، منه ما هو جلي ظاهر، وهو الأعم الأغلب، ومنه ما هو خفي وغامض، حتى يحتاج إلي مزيد من التدبر لإدراكه. ومن هذا القسم آيات معدودة كثرت فيها أقوال المفسرين، بسبب شدة خفاء الرابط فيها، وفيها يقول السيوطي: (من الآيات ما أشكلت مناسبتها لما قبلها)[1]، وقد استدعت هذه الآيات الكثير من جهود العلماء، وأنتجت العديد من الأقوال، ووجوه التناسب المتنوعة، على أن إشكال التناسب في هذه الآيات لم يكن دائماً نابعاً من غموض الرابط فيها، بل كان أحياناً ينبع من الخطأ في التفسير والاعتماد على روايات ضعيفة، أو على الإسرائيليات، ثم النظر إلي الآية من خلال هذه الروايات، والبحث عن وجه تناسبها بناءً على فهم مقيد بتلك الروايات.

ومن أبرز هذه الآيات قوله تعالى في سورة البقرة بعد الآيات التي تحدثت عن قصة تكليف بني إسرائيل بذبح البقرة: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ. فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:٧٢-٧٣). فقد تساءل العلماء عن علاقة هاتين الآيتين بالآيات السابقة لها الخاصة بذبح البقرة، إذ إن قتل النفس -كما قال جميع المفسرين -كان سابقاً للأمر بذبح البقرة ، ومن هنا تساءلوا عن سبب هذا التقديم والتأخير في عرض هذه القصة ، فأجاب بعضهم بأن هاتين الآيتين مقدمتان في المعنى، وإن كانتا متأخرتين في اللفظ، فيما رأى آخرون أن هذه القصة نزلت في وقتين مختلفين ، ولهذا لم يُراعَ الترتيب فيها.

أما الزمخشري، فقد كان له رأي مختلف ، يقول: (فإن قلت: فما للقصة لم تقص على ترتيبها، وكان حقها أن يُقدَّم ذِكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها ، وأن يقال : وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها ، فقلنا : اذبحوا بقرة ، واضربوه ببعضها) قلت : (

(١) الإتقان ٣ / ٣٢٨ ، وانظر أيضاً : معترك الأقران ١ / ٤٩ .

كل ما قُصّ من قصص بني إسرائيل ، إنما قُصّ تعديداً لما وُجد منهم من الجنايات ، وتقريعاً لهم عليها ، ولمّا جُدِّد فيهم من الآيات العظام ، وهاتان قصتان، كل واحدة منهما مستقلة بنوعٍ من التقريع، وإن كانتا متصلتين متَّحِدتين، فالأُولى لتقريعهم على الاستهزاء، وترك المسارعة إلى الامتثال، وما يتبع ذلك. والثانية للتقريع على قتل النفس المحرَّمة ، وما يتبعه من الآية العظيمة ، وإنما قُدِّمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذِكر القتيل ، لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ، ولذهب الغرض في تثنية التقريع)[1].

غير أن الجواب الأقرب إلي القبول لبعده عن الغموض في التقدير هو ما ذكره أبو حيان ، حيث قال : (يجوز أن يكون ترتيب وجودهما ونزولهما على حسب تلاوتهما، فيكون الله تعالى قد أمرهم بذبح البقرة، فذبحوها وهم لا يعلمون بما له تعالى من السر، ثم وقع بعد ذلك أمر القتيل، فأظهر لهم ما كان أخفاه عنهم من الحكمة بقوله: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾، ولا شيء يضطرنا إلى اعتقاد تقدُّم قتل القتيل .... وإنما حمل من حمل على خلاف الظاهر، اعتبار ما رووا من القصص الذي لا يصِحُّ ، إذ لم يرد به كتاب ولا سنة ، ومتى أمكن حمل الشيء على ظاهره كان أولى ، إذ العدول عن الظاهر إلى غير الظاهر إنما يكون لمرجح ، ولا مُرجح، بل تظهر الحِكمة البالغة في تكليفهم أولاً ذبح بقرة ، هل يمتثلون ذلك أم لا ؟ وامتثال التكاليف التي لا يظهر فيها ببادئ الرأي حِكمة أعظم من امتثال ما تظهر فيه حِكمة ، لأنها طواعية صِرْف، وعُبُودية محضة ، واستسلام خالص، بخلاف ما تظهر له حِكْمة، فإن في العقل داعية إلى امتثاله، وحضّاً على العمل به)[2].

كانت هذه على وجه التقريب أهم أسباب هذه الظاهرة المزدوجة، وهي: اختلاف العلماء في تقدير وجه المناسبة، وتكثر فريق من وجوه المناسبات، وهي الظاهرة التي تمثل المأخذ الثالث من المآخذ العلمية على بحوث العلماء التطبيقية في التناسب.

وبهذا المبحث أكون قد أتيت على التناسب بين سور القرآن الكريم وآيه حسب طاقتي الضعيفة. وقبل أن أضع عصا التسيار، أنتقل إلي ذكر مركز لخلاصة البحث، وحصاد الذهاب والإياب في خاتمة المطاف –أسأل الله تعالى حسنها– فانظرها في الصفحات التالية:

---

(١) الكشاف ١/ ١٥٤، وانظر: مفاتيح الغيب ٣/ ١١٤، ونظم الدرر ١/ ١٧١.

(٢) البحر المحيط ١ / ٤٢٣ .

الخاتمة:

هذا، ولا أدعي في هذا البحث الاستيعاب والتحليل والتفصيل وتناول كل المناسبات بين السور والآيات، إذ لم يكن من خطة هذه الدراسة أن تتناول كل ما يتعلق بالمناسبات تأصيلاً وتطبيقاً من شاذة وفاذة ، وإنما صورة الأمر كما قيل: (يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق).

ولقد كان أهم ما هدفت إليه هذه الدراسة أن تبرز بمجموعها النقاط التالية:

١) علم المناسبات علم تعرف منه أسرار ترتيب الآيات بعضها مع بعض ، وأسرار ترتيب السور بعضها إثر بعض ، حيث إن مادة: (نسب) تدور حول معنى: اتصال شيء بشيء آخر ، وقربه منه ، ومشاكلته له.

٢) مرجع المناسبة بين السور والآيات والجمل في الآية الواحدة يعود إلي معنى رابط بينها ، عاماً كان أو خاصاً ، عقلياً كان أو حسياً أو خيالياً .

٣) الأصل الشرعي الذي يستند إليه علم المناسبات هو أن ترتيب الآيات توقيفي بالإجماع ، والجمهور على توقيف ترتيب السور أيضاً ، وعلم المناسبات يستشف أسرار هذا الترتيب .

٤) لدراسة علم المناسبات فوائد جليلة ، فهو يظهر إعجاز القرآن الكريم ، ويبرهن على تلاحم سوره وآياته ، وينفي الشبه المثارة حول نسق الترتيب في بعض الآيات ، كما أنه أحد أدوات المفسر المهمة للترجيح بين الأقوال إذا تعددت، فضلاً عن أنه علم يكشف عن سر ظاهرة التكرار في القرآن الكريم .

٥) البذور الأولى لعلم المناسبات بدأت مع بداية التفسير ، فقد أثر عن بعض مفسري الصحابة والتابعين ما يدل على عنايتهم بإظهار ارتباط الآيات وتناسب معانيها، غير أن أول من أظهر علم المناسبات هو الإمام أبو بكر النيسابوري (ت٣٢٤هـ)، وقبله بقليل الطبري (ت٣١٠هـ)، حيث أصل قاعدته الذهبية:

(القول الذي يدل على اتساق الآيات وترابط معانيها أولى بتفسير الآية). ثم توالى العلماء بعد ذلك في الاحتفاء بهذا العلم واستنباط قواعده.

٦) أول من أثار تساؤلات واعتراضات حول علم المناسبات هو عز الدين بن عبد السلام، وتبعه على ذلك جماعة على رأسهم الشوكاني ، فقد ذهبوا إلي أن المناسبة لا تذكر إلا إذا كانت ظاهرة، بأن يكون الكلام واحداً يرتبط آخره بأوله، أو تناول موضوعاً واحداً، أو نزل في شيء واحد، أما إذا كانت الآيات مختلفة الأغراض، متنوعة الموضوعات، فلا داعي لتكلف المناسبة، حيث نهينا عن التكلف. غير أن المتحمسين لعلم المناسبات قد أجابوا عن كل تساؤل أثير بما لا مزيد عليه.

٧) لعلم المناسبات قواعد يجب أن يتسلح بمعرفتها كل من يريد أن يخوض غمار هذا العلم القرآني، وهي: الاعتماد على النقل الصحيح في تفسير القرآن، وضرورة التزود من العلوم المتصلة بالتفسير، وأن يعلم أن التدبر في آيات القرآن والتأمل في معانيها، من المبادئ الأولية لهذا العلم القرآني، وأنه لا يمكن الوصول إلي الوجه الصحيح في تناسب آيات أي سورة دون إدراك مقصدها الكلي، فهو الذي يجعل رؤية التناسب الإجمالي والتفصيلي بين الآيات أوضح وأدق، كما أنه لابد من معرفة عادة القرآن في الاستطراد من المقصود إلي غيره بأدنى ملاءمة، ثم العود إلي المقصود، وهذا ما يسمى بـ (فن الاستطراد).

٨) التناسب قسمان: إجمالي وتفصيلي، أما التناسب الإجمالي بين السور فيتمثل في ربط فاتحة الكتاب وخاتمته مع سياق القرآن الكلي، وربط الفاتحة بالخاتمة، فضلاً عن ربط أقسام القرآن الكبرى بعضها مع بعض.

والتناسب الإجمالي بين الآيات قائم على ربط المفاصل الأساسية للسورة بعضها مع بعض، وأهم هذه المفاصل، فاتحة السورة وخاتمتها، وفصول السورة وهي: مجموعة متكاملة من الآيات المتعاقبة ذات موضوع واحد ، ثم بيان تناسب كل آية مع الآية أو الآيات السابقة أو اللاحقة لها في السياق .

ويتمثل التناسب التفصيلي بين السور في تناسب فاتحة السورة مع فاتحة السورة السابقة لها، أو خاتمتها، أو مضمونها، أو تناسب مضمون السورة لمضمون ما قبلها أو خاتمتها، وتناسب خاتمة السورة لفاتحة السورة السابقة لها، أو تناسب موضع معين من السورتين.

٩) شابت بحوث العلماء التطبيقية في التناسب بعض الهنات نتيجة الإخلال بقواعد علم التناسب، والتسرع في الحكم على وجه المناسبة، أو في قبول كلام الآخرين دون تثبت من قيمته العلمية، وتمثلت أهم المآخذ في تكلف المناسبة، وغياب البعد الكلي في التناول، مع القبول بأي كلام يقال حتى ولو كان بيّن التهافت، فضلاً عن الاختلاف في تقدير المناسبات، والتكثير من إيراد وجوه للمناسبات بين الآيات.

وبعد، فتلك أهم المسائل التي حاولت هذه الدراسة إبرازها، والله أسأل أن يوفقني فيما قصدت ، وأن يسبغ على فضله وإحسانه فيما أحسنت، ويغمرني بعفوه وغفرانه فيما أسأت وزللت. والحمد لله رب العالمين، له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

فهرس أهم المراجع والمصادر

١) الإتقان في علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطى ، ت/محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ، بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، لأبى السعود العمادى ، ت/ محمد عبد القادر عطا، مكتبة الرياض الحديثة ، مطبعة السعادة بالقاهرة .
٣) الإشارة إلي الإيجاز في بعض أنواع المجاز، لعز الدين بن عبد السلام، ت/ محمد الحسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين البيضاوى، ت/عبد القادر عرفان ، دار الفكر ، بيروت ١٤١٦هـ /١٩٩٦م .
٥) البحر المحيط ، لأبى حيان الأندلسى ، ت/ عادل عبد الموجود، وآخرون، دار الكتب العلمية ، ط١/١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .
٦) البرهان في تناسب سور القرآن ، لابن الزبير الثقفى، ت/ سعيد الفلاح ، جامعة الإمام بالرياض ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
٧) البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين الزركشى ، ت/محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة ، بيروت ١٣٩١هـ /١٩٧٢م .
٨) التبيان في تفسير القرآن، لأبي جعفر الطوسي ، المطبعة العلمية بالنجف ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م.
٩) تفسير ابن عرفة، أبي عبد الله محمد بن عرفة الورغمي، برواية: محمد ابن خلفة الآبي، ت/ حسن المناعي، مركز البحوث بالكلية الزيتونية ١٩٨٦م.
١٠) تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء ابن كثير، دار النهضة العربية ، بيروت، ط٥ / ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

١١) تفسير القرآن الكريم ، للخطيب الشربيني ، دار المعرفة ، بيروت ، ط٢.
١٢) تناسق الدرر في تناسب السور، لجلال الدين السيوطي ، ت/ عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية ، ط١/١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
١٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبى جعفر الطبري، ت/محمود شاكر، دار المعارف ، ط٢ / ١٩٦٩م .
١٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لأبى جعفر الطبري ، مطبعة البابي الحلبي ، ط٢ / ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م .
١٥) الجامع لأحكام القرآن، لأبى عبد الله القرطبي، دار الكتب المصرية ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م .
١٦)حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي، المكتبة الإسلامية، تركيا.
١٧) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، ت/أحمد الخراط، دار القلم ، ط١/١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
١٨) الرد على المنطقيين، لابن تيمية ، ت/رفيق العجم، دار الفكر، ط١/١٩٩٣م.
١٩) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط١/١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م.
٢٠) العقد الفريد في مباحث من علوم القرآن المجيد، د/ إبراهيم توفيق الديب، ط٢/ ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م .
٢١) غرائب التفسير وعجائب التأويل، لمحمود بن حمزة الكرماني، دار القبلة بجدة ، ط١ / ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٢٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، لنظام الدين النيسابوري ، ت/ إبراهيم عطوة ، مطبعة الحلبي ، ط١/١٣٨١هـ / ١٩٦٢م.
٢٣) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، لمحمد بن على الشوكاني ، دار المعرفة ، بيروت.
٢٤) قطف الأزهار في كشف الأسرار، لجلال الدين السيوطي، ت/ أحمد الحمادي، وزارة الأوقاف بقطر ، ط١ / ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
٢٥) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لمحمود بن عمر الزمخشرى، دار الكتاب العربي، ط٣ /١٤٠٧هـ /١٩٨٧م.
٢٦) اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل الحنبلي ، ت /عادل عبد الموجود، وعلى معوض ، دار الكتب العلمية ، ط١ /١٤١٩هـ /١٩٩٨م.
٢٧) لطائف الإشارات، لعبد الكريم القشيري ، ت/ إبراهيم بسيوني، مركز تحقيق التراث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١م.
٢٨) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين ابن الأثير، ت/ أحمد الحوفي ، نهضة مصر.
٢٩)مجمع البيان في تفسير القرآن ، لأبي علي الطبرسي ، دار مكتبة الحياة ، بيروت.
٣٠) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع/عبد الرحمن قاسم وابنه محمد.
٣١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد بن عطية الأندلسي، ت/ عبد الله الأنصاري وآخرون ، قطر.

٣٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لعبد الله بن أحمد النسفي ، ت/ إبراهيم رمضان ، دار القلم ، ط١/١٤٠٨هـ .

٣٣) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، لبرهان الدين البقاعي، ت /عبد السميع حسنين ، مكتبة المعارف بالرياض ، ط١/١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.

٣٤) معترك الأقران في إعجاز القرآن ، لجلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية ، ط١ /١٤٠٨هـ /١٩٨٨م.

٣٥) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) ، لفخر الدين الرازي ، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤١١هـ /١٩٩٠م.

٣٦) نصرة الثائر على المثل السائر ، لصلاح الدين الصفدي ، ت/ محمد سلطاني، مجمع اللغة العربية ، دمشق .

٣٧) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي ، ت/ عبد الرزاق المهدي ، دار الكتب العلمية ، ط١ /١٤١٥هـ /١٩٩٥م .

٣٨) الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين (دراسة بلاغية في التراث العربي)، د/ سامي بن عبد العزيز العجلان، مطبعة جامعة الإمام بالرياض ، ط١/١٤٣٠هـ /٢٠٠٩م .

فهرس موضوعات البحث

الموضـــوع	الصفحة
المقدمة :	٨٣٧
المبحث الأول : تعريف علم التناسب ، وفوائد دراسته .	٨٤١
المطلب الأول : تعريف علم التناسب في اللغة والاصطلاح .	٨٤١
المطلب الثاني : فوائد دراسة علم تناسب السور والآيات .	٨٤٥
المبحث الثاني: ظهور علم التناسب ، وأشهر العلماء المؤلفين فيه.	٨٥٠
المبحث الثالث : الاعتراضات الموجهة لعلم المناسبات، ودفعها.	٨٥٦
المبحث الرابع: القواعد الكلية لدراسة علم المناسبات بين السور والآيات	٨٦٦
المبحث الخامس : التناسب بين السور الإجمالي والتفصيلي .	٨٧٦
المطلب الأول : التناسب الإجمالي بين السور .	٨٧٧
المطلب الثاني : التناسب التفصيلي بين السور .	٨٨١
المبحث السادس : التناسب بين الآيات الإجمالي والتفصيلي .	٨٨٩
المطلب الأول : التناسب الإجمالي بين الآيات .	٨٨٩
المطلب الثاني : التناسب التفصيلي بين الآيات .	٨٩٩
المبحث السابع: المآخذ على بحوث العلماء التطبيقية في التناسب.	٩٠٨
الخاتمة	٩١٥
فهرس أهم المصادر والمراجع.	٩١٨